
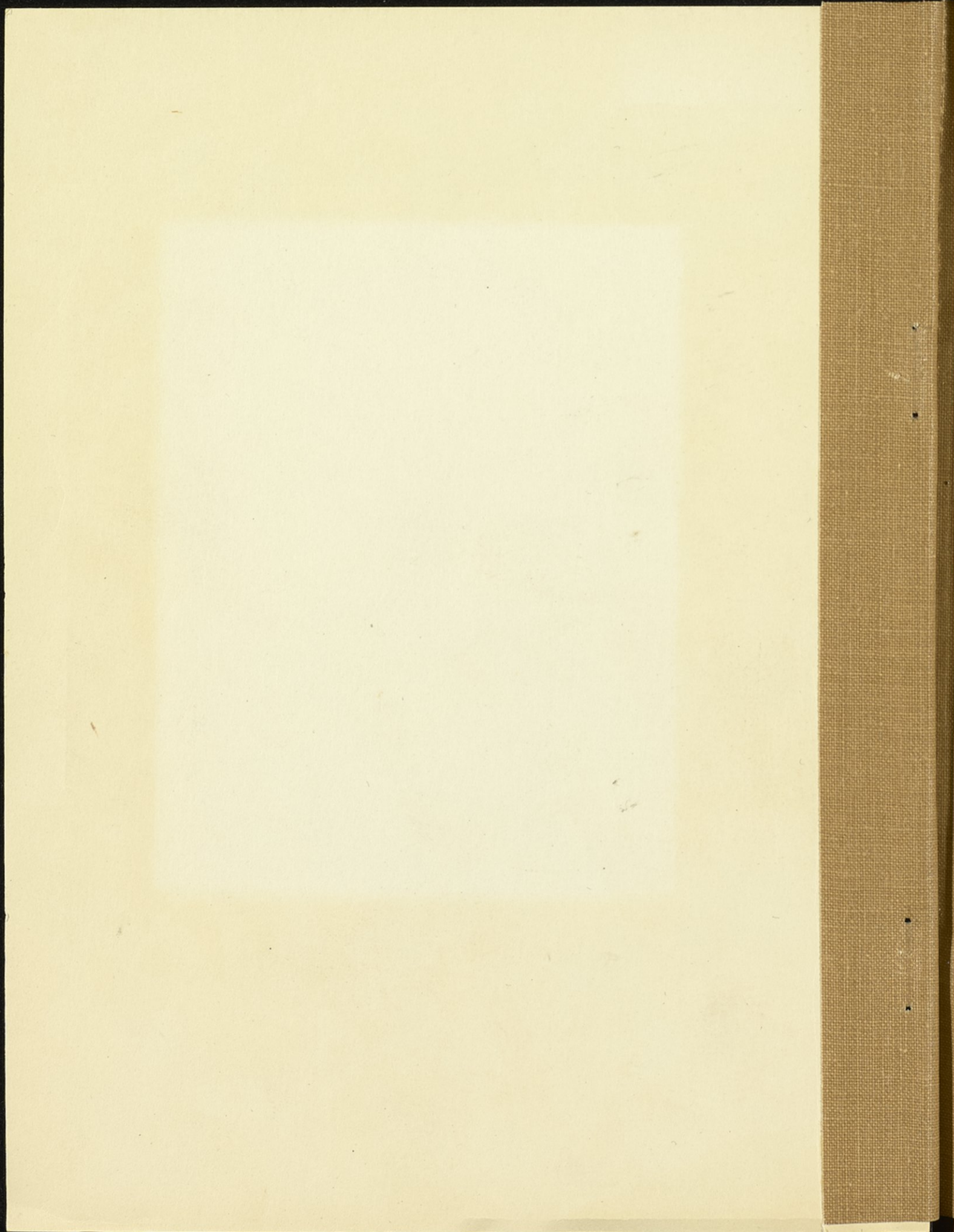


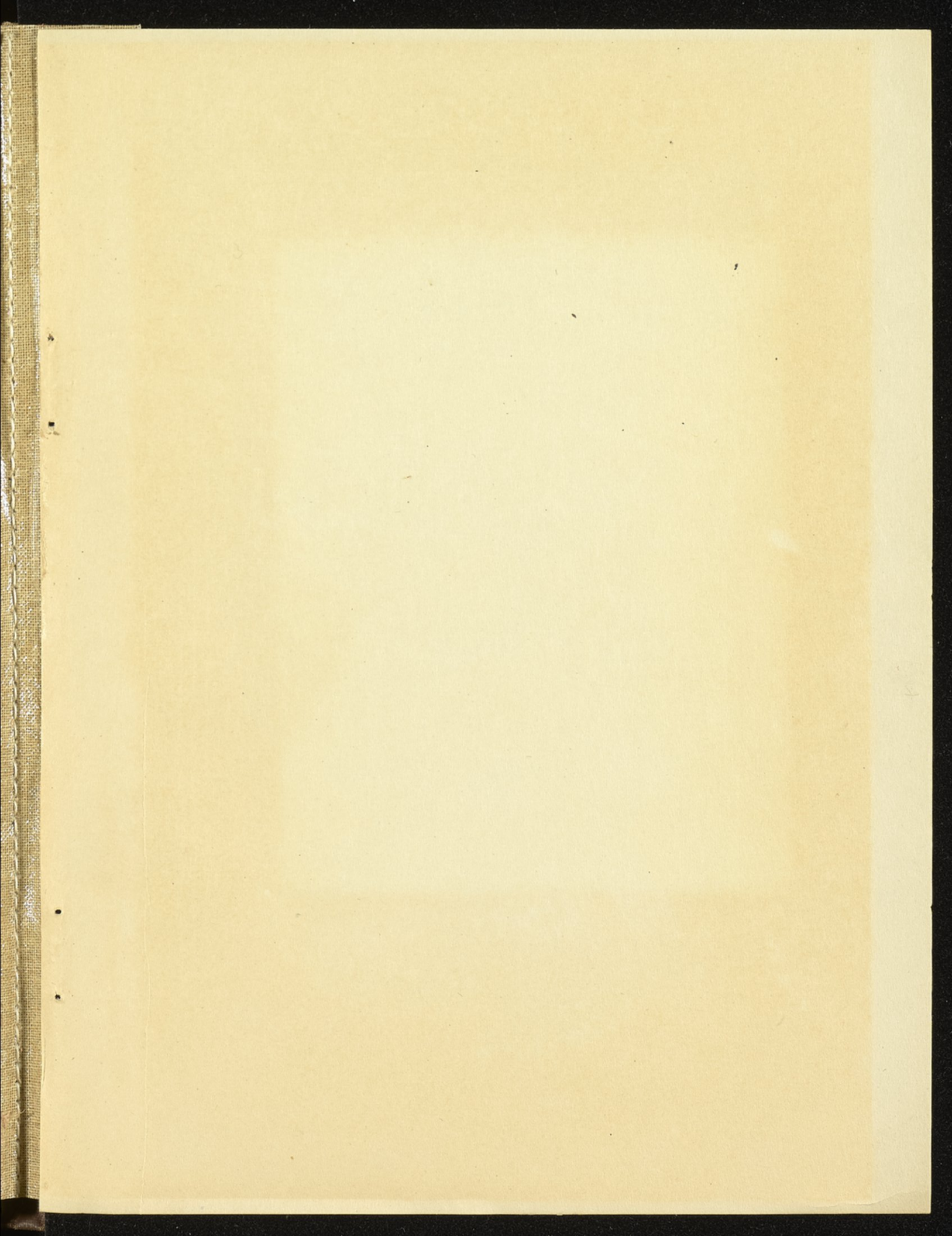
Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

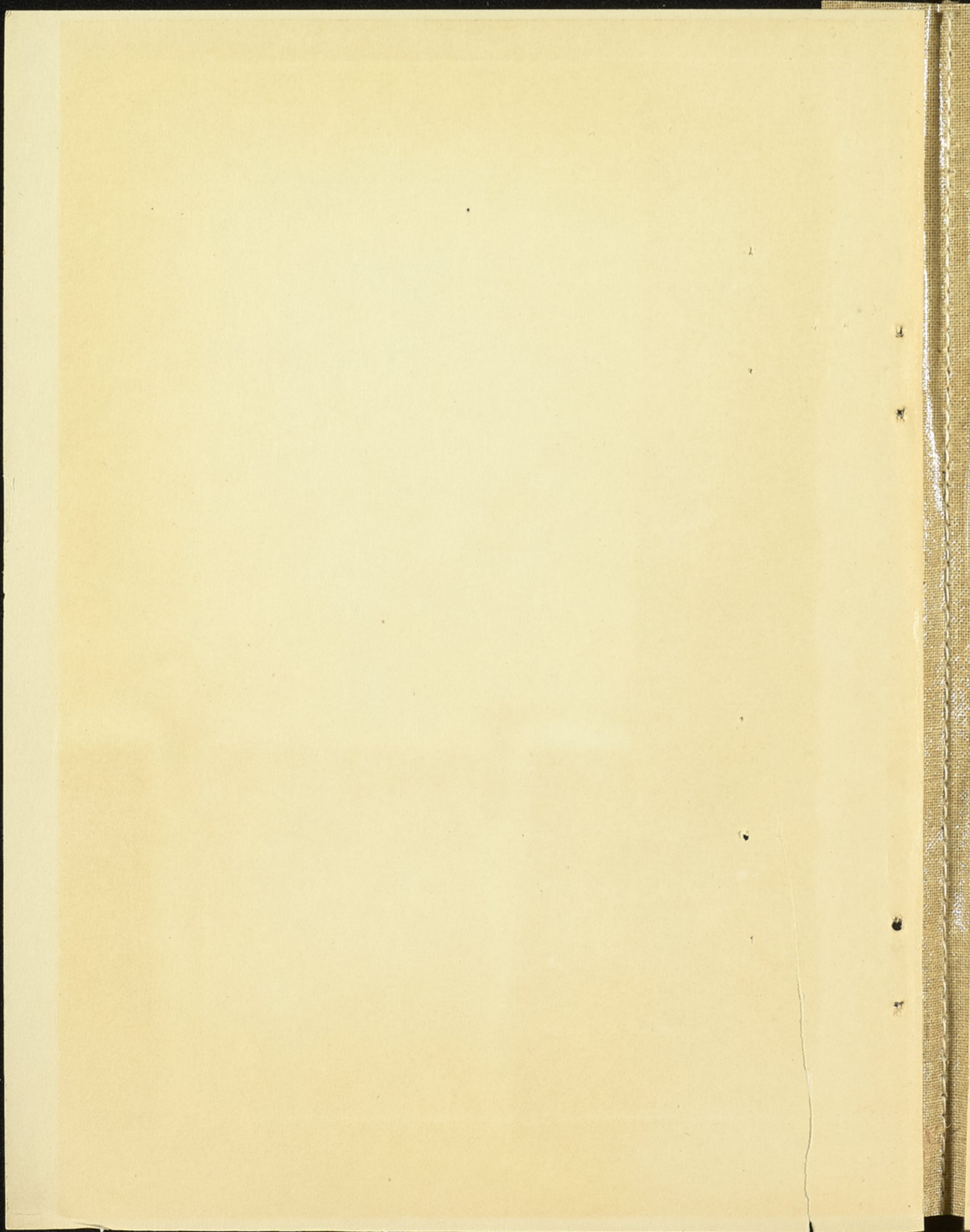


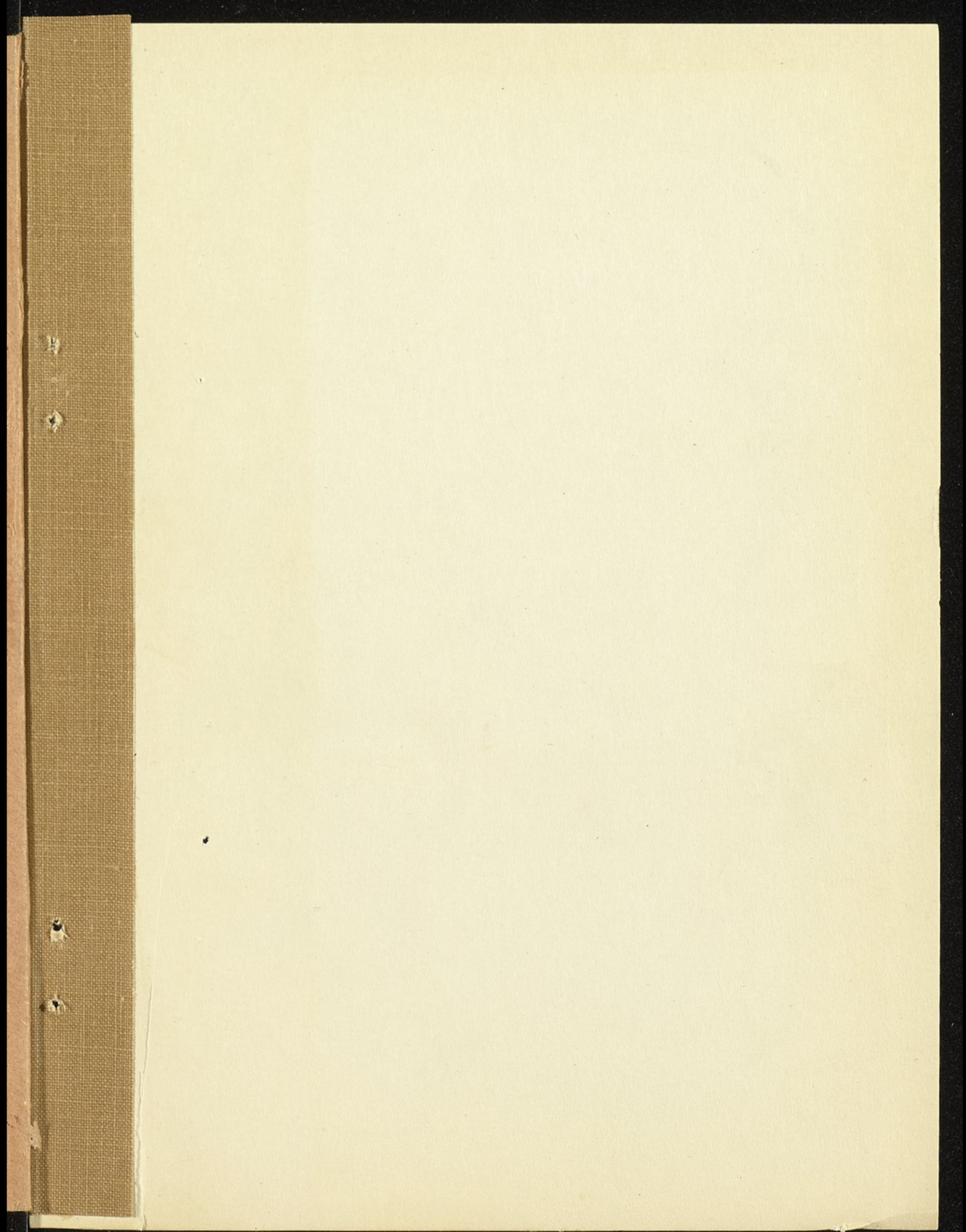
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY











دار اليفظ العربيه للناليف والترجمه والنشر بسوريه

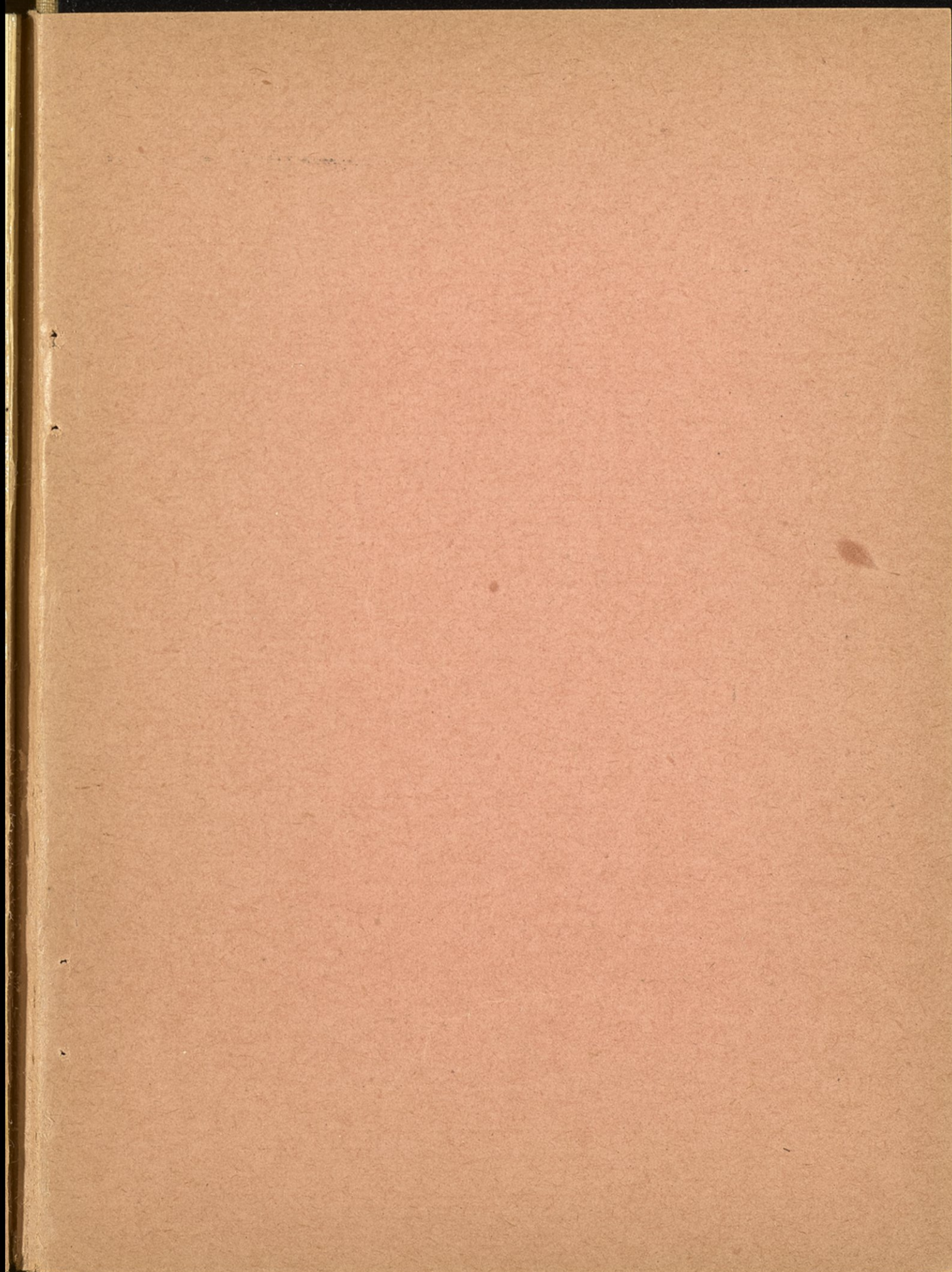
زكي الازيسوي

بعث الامة العبرية

و رسالتهم الى العالم

الدولة والامة

(٤)



دار اليفطة العربية للنألف والمترجمة والنشر بسورية

زكي الأرسوزي

بعض الألف العربية

و رسالتهم إلى العالم

الدولة والامة

(٤)

893.713
Ar99

v. 4

v. 4

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

21431MS

المحتوى

صفحة

١ - الامة

٧٢ - مشاكلنا القومية

٩٦ - الاسرة

123

123

123 456 789

123 456

الامة

لكل مرحلة تاريخية طابعها ، وطابع هذه المرحلة : القومية .
فمن الوجدان القومي يستوحى فيها الناس مثلهم العليا ،
وبالاستناد الى المصالح العامة تسن فيها الشرائع وتنظم الحياة
الاجتماعية الاقتصادية . حتى اذا ما وقعت الحرب بين دولة واخرى
في هذه المرحلة التاريخية فانما تقع باسم الامة . واذا حصل انسجام
بين منظومات دولية فمرد الانسجام الى توافق المصالح
بين الامم .

اما كيف استحوذ هذا النمط من التفكير على العقول فطبع
بطابعه شؤون الحياة العامة والخاصة فذلك ان الذهن اخذ
يتحول عن ثنائية القرون الوسطى الى وحدانية رحمانية في
الحضارة الحديثة ؛ اخذ يتحول عن ثنائية تحول فيها الباري عن
الطبيعة حتى الافتراق الى وحدانية اصبحت فيها الكائنات ذات

بنيان وحمائي مشترك . ظهر الاختلاف بين القرون الوسطى
ذات النظام الرتيب وبين الحضارة الحديثة ذات النظام النسبي ،
نسبة الحوادث وتلازمها في وحدة الطبيعة على غرار الاختلاف
بين بنية الاحياء وتركيب الآلة ، بين البذرة والجرة مثلاً :
تنطوي الاولى على مبدأ نموها وعلى النزعات التي تتعين بها حدود
طبيعتها ، وتتلقى الثانية من انعها الجرار الشكل والقوام .
بدأ الذهن يتحول عن القرون الوسطى في تفسير الحوادث
حين بدأ الانقلاب في وجهة نظر الانسان في الدنيا ، حين
اكتشف كوبرنيج المنظومة الشمسية على اعتبار الارض جرمًا
بين الاجرام السماوية ، وحين اماط غاليلي اللثام عن اسطورة
تقسيم الاجسام بين مادية وروحية . انه لتحول نجم عنه الاعتقاد
بان الانسان مؤهل لمعرفة الحقيقة ، اذ ان ما بينه العقل تحققه
التجربة . ولما قال ديكارت عبارته الماثورة : « العقل (الذوق
السليم) اعدل الامر توزيعاً بين البشر » كان يجمل بهذا القول
وجهة نظر الحضارة الحديثة في الانسان .

ولكن اذا كانت النفس تنطوي على عقل يؤهلها لمعرفة
الحقيقة وعلى وجدان يبين لها سبيل الفضيلة ، فمن حق كل انسان
ان ينظم سلوكه حسب مشيئته وان يشترك ، كمواطن ، مع

أخوانه في تنظيم شؤون الدولة . وتحقيقاً لهذا الحق تنادى الناس
إلى الاستقلال والحرية ، تحقيقاً لهبت الشعوب في وجه الاستعمار
والاستبداد مؤكدة إرادتها في الحياة .

نقدم فيما يلي جدولاً بالأسس التي تقوم عليها كل من القرون
الوسطى والحضارة الحديثة والتي تزيد بمقابلتها من وضوح التباين
بين هاتين المرحلتين من تاريخ الإنسانية : القرون الوسطى :

١ نظام الطبقات في المجتمع وفي الكائنات على رأسه
البابا أو الخليفة وفي قاعدته العامل والفلاح . أما في الكائنات
فانه يقوم على الصورة المحسوسة باعتبار الأرض وسطاً بين عالمين
علوي وسفلي ، الأول يرتقي حتى العرش والثاني ينحدر إلى
الدرك الأسفل .

٢ صورة الدنيا تحمل طابع واضعها الإنسان . إنها مستوحاة
من صبوة النفس المتفاوتة بالمدى في الإبداع الفني والأعمال
الأخلاقية . وهي بذلك تتراوح بين التقليد والعبقرية البطولة .

٣ — السلطة تصدر عن السماء يتلقاها الرسول من الإله وهو
ينقلها بدوره إلى الخليفة أو البابا . أي أن الإله يختار رسوله
ويعهد إليه بإداء الرسالة . ومن هنا أتى لقب الرسول (محمد
المصطفى) . والرسول مسؤول عن المهمة الموكولة إليه أمام

الله لا امام الجماعة .

٤ - - القوانين آيات منزلة على صورة او امر ونواهي . والله وحده حق تعديلها او تبديلها . اما الرسول فتتف صلاحيته عند تفسيرها ، وصلاحية الأئمة عند توسيعها بالقياس ، على مسؤوليتهم الخاصة (الاجتهاد) .

٥ - ولقد شاعت خلال القرون الوسطى ، في اوروبا المسيحية ، فكرة الخطيئة ، خطيئة بني آدم المنتقلة اليهم بالوراثة من جداهم الاكبر بهبوطه من الجنة ، وما لازم هذا الهبوط من تقصير العقل عن معرفة الحقيقة بحيث اصبح الناس بحاجة الى نبي مخلص او من يقوم مقامه من مؤسسة كالكنيسة مثلا ومن هنا قام نظام الحياة في القرون الوسطى على مبدأ عدم المساواة من جهة ثانية .

الحضارة الحديثة فيقابل ذلك :

١ - نظام نسبي على اعتبار الارض جرمًا بين الاجرام السماوية بحيث لم يبق للاتجاه المطلق من معنى ، اي لكلمتي : فوق وتحت . اذ انه بالنسبة الينا ، وان كان سكان المنطقة الجنوبية من الارض تحت اقدامنا ، فانهم بدورهم يروننا تحت اقدامهم . بينما كانت القرون الوسطى تعتبر هذا التقابل وما ينتج

عنه من ارتباط الناس عن طريق الاقدام بالارض متمتعاً .
ويتخذونه دليلاً على بطلان كروية الارض . وقوام هذا النظام
النسبي : المساواة ، بمعنى تساوي الناس في حق الاشتراك في
تنظيم الدولة وفي الخضوع للقوانين العامة ، وتساوي الحوادث
الطبيعية بالخضوع لمبدأ الضرورة .

٢ - تحولات الصورة الحسية في الحضارة الحديثة الى مفهوم
مستوحى من نظام الطبيعة ومن مبدأ خضوع الحوادث لقوانين
تمس الرياضيات بكيانها .

٣ - الجمهور هو مصدر السلطة وهو ينتخب رئيس الدولة
فيوكل اليه المهام العامة ويجعله مسؤولاً عن تصرفاته امام
ممثلي الامة .

٤ - القوانين تمثل الارادة العامة وتتطور مع تطور الجماعة
وهي مستخلصة من طبيعة الاشياء لامنزلة من السماء .

٥ - اكتشاف القوانين الطبيعية اعاد الى لانسان ثقته
بنفسه وجعله يصبح حكماً في مصيره ويشترك في مصير الانسانية
مما سبب اقامة مفهومي المساواة والحرية كشعار للمجتمعات
الحديثة .

هكذا تحولت الروابط بين الناس من معالمة الى طبيعية

ولما كانت الامة امتدادا للأسرة تقوم على روابط طبيعية بين
ذوي القربى فقد اصبح مبدأ الاخوة اساساً في جمع شمل المواطنين
على النضال في سبيل الاستقلال والحرية .

فالتفكير القومي ، اذا ، وان كان اصيلاً في الطبع البشري
وملازماً له ، الا انه لم ينطلق في اية مرحلة من التاريخ انطلاقه
في المرحلة التاريخية الراهنة حتى لقد بدت ، في هذه المرحلة ،
جميع مظاهر الحياة العامة كاللغة والتشريع والفنون والفلسفة الخ ..
تجليات لحقيقة الامة .

ومع ذلك فقد اختلف اعلام الامم في فهم ماهية الامة ،
كل منهم يستوحي وجهة نظره من البنية الخاصة بأتمته . ففي
فرنسا مثلاً تقام الحياة السياسية الاجتماعية على مبدأ التمثيل
والتبني ، تمثل الدخيل وتبني الاغيار ، وذلك لان فرنسا محصلة
عوامل تاريخية نشأت من روما التي حصل تكويتها من انصهار
شعوب مختلفة في بوتقة ثقافية موحده . ونحن اذ نقول ان من
عاشر القوم اربعين يوماً صار منهم نلخص مبدأ الجوار والمصلحة
المبدأ الذي يقوم عليه كيان فرانس ومن قبلها روما . فكان
الانسانية ، حسب وجهة النظر هذه ، تغرس في النفس غرساً
ووسيلة الغرس هي التربية في حالتها المقصودة وغير المقصودة .

وبينما كانت فرنسا تعتبر مفهوم الامة كحصوله لظروف
طبيعية تاريخية وكان احد اعلامها ارنست رينان يفصح عن
هذا الرأي بتعريفه الامة كذكريات وامان مشتركة ، كان
الالمان يفهمون من « الامة » عبقرية تصدر عنها مظاهر الحياة
العامه كمؤسسات اجتماعية وكمبدأ انسجام بين هذه المظاهر .
وبحسب هذا الزعم تنشيء الحياة بنية الجسد والمؤسسات القومية
بالعريضة . وليس الفرق بين ما قد يتجلى في الوجدان وبين
ما ينبض تحت الشعور الا فرقاً بدرجة الوضوح بين مراحل
مختلفة لنفس الوثبة ويلتقي الذهن العربي هنا ايضا مع هذه
النظرة في كلمة « جنس » الحاصل تكوينها من « جن بمعنى
اختفى » مع الحاق حرف « س » الذي يعبر عن الحركة اي عما
ينبعث من تحت الشعور . ولما كان الدم ينتقل من الاجداد الى
الاحفاد دون انقطاع ورغم ما يظهر فيه الافراد من مظهر الانفصال
والاستقلال فقد اتخذت وسيلة الانتقال هذه كقاعدة طبيعية
لعبقرية الامة ومستودعاً لخصائصها بحيث تصبح العلاقة بين
الدخيل والامة بمثابة العلاقة بين الطبوع والبهيمة التي يتطفل
عليها فمهما طمست الفوارق الخارجية بين المتطفل والفريسة تبقى
الدورة الدموية بينهما متعاكسة .

كذلك هو التباين في الرأي بين فرنسا وألمانيا على غرار
التباين بين قطبي الحياة : النسبة والجوار ، الرحم والمصلحة .
اما نظريات اعلام الامم الاخرى في ماهية الامة فليست غير
تلونات لاحد الاتجاهين السابقين .

ونحن نستجلي هنا وجهة نظر العرب في ماهية الامة مستندين
في محاولتنا هذه الى مظاهر حياتنا العامة فنبدأ اولاً بايضاح
كلمة امة وننتقل بعدئذ الى خبرات اجدادنا المتبلورة امثالاً
في تراثنا .

فكلمتا « امة » و « ام » ترجعان الى مصدر مشترك هو
« أم » اي قصد ، والام في اسرة هذه الكلمات هي صورة
الامة الحسية . فكما يصدر عن الام ابناءؤها ويتجهون اليها
كمنهل للحياة ، كذلك الامة في الحدس العربي هي مصدر
الاخوة في المجتمع وهي غاية ما يصبو اليه الاخوان من امنية ،
مثلاً كمثل الام ذاتها .

وهاك اتجاهات الحدس في كلمة « أم » : (الام الوالدة
اصل الشيء) ، (الامام : من يقتدى به : الحط يمد على البناء
ليبنى مستقيماً) ما يمثل عليه المثال : الطريق الواضح) ، (الامة

الجماعة : الطريقة) . هذه المعاني ، لدى استقطابها متقاربة في الوجدان « ينجلي حدس العرب في هذا الشأن ، فان الامة ، بحسب هذا الحدس ، هي الوجدان القومي الذي تصدر عنه المثل العليا والذي تقدر بالنسبة اليه قيم الاشياء .

واكن اذا نما الذهن العربي هذا المنحى المثالي في فهم الامة فهل يتفق الحدس مع واقع الامر ، يرجع الانسجام اذن بين مظاهر الحياة العامة الى حقيقة مثل رجوع الانسجام بين الانعام في الانشودة الى الالهام ؟ ام ان الانسجام بين المظاهر في الحياة والفن ليس الا جملة مصادفات سعيدة ثبتها المجتمع التربوية ؟ وبتعبير آخر هل الامة مفهوم concept يبنيه الذهن تلخيصاً لعوامل تاريخية طبيعية ؟ ام هي اية idée اصولها في الملاء الأعلى وتجلياتها تندرج في الطبيعة كنظام بنية الافراد والمؤسسات العامة .

ان الخبرات المتوارثة لدينا تتفق مع الحدس المتضمن في كلماتنا اتفاقاً يتضح به نهج التفكير العربي في فهم ماهية الامة . واليك بعضاً من الاقوال الماثورة في هذا الصدد : « الولد سر ابيه » ، « كادت المرأة تلداً خاها » ، « خذوا البنات من صدور العبات » ، « اذا بار الولد فقلناه للخال » الخ ... هذه الامثال

يشير كل منها الى ان الحياة تنشيء بالغريزة الاحقاد والاجداد
تنشئهم على مثال مشترك سماتهم وأصول تفكيرهم معاً ، الاينزع
الولد الى ابيه حتى ولو لم تقدر له رؤيته ؟ ! .

وإذا تعارف العرب في الجاهلية على علم القيادة الذي يقوم
على الاستدلال بهيئة الانسان على نسبه فقد هدمتهم الملاحظة
والتجربة الى رسوخ قواعد الرراثة حتى ان الاسلام نفسه أخذ
بهذه الاحكام في الشرع . واليك ماورد في الصحيح من الحديث
فيما يتعلق بهذا الامر ، ان مجزرا الاسلامي دخل يوماً الى الرسول
فراى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما
وبدت اقدامهما فنظر اليهما مجزرا الاسلامي وقال : ان هذه
الأقدام بعضها من بعض ... فسر بذلك النبي « وقد فسر
الاصفهاني هذا النوع من المعارف بما يلي : « خص الله تعالى
بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نساءهم عما يورث ثلب
نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة للنسبة
كان العرب اذا نظروا الى عدة اشخاص الحقوا الابن بأبيه
والاخ بأخيه والقريب بقريبه وميزوا الاجنبي من بينهم . اما
حكمة اهتمام العرب بالنسب فنجدها في جواب اباد عند ما قيل
له : « من اين عرفت ان الرجل يدعي لغير ابيه » فقال :

« لاني رأيتہ يتسكف ما يعملہ » ونجدہا أيضاً في اقوال مأثورة
كہذه « يد الحر ميزان » « أنجز حر ما وعد » و « بالبر
يستعبد الحر » .

ولقد فطن العرب للعلاقة بين ما يظهر من الحياة وما يضمّر
فيها من استعدادات فوضعوا علم الفراسة كسجل لخبراتهم في
هذا الامر . وقد أيد القرآن حدس الجمهور بآيات كہذه :
« ان في ذلك لآيات للمتوسمين ، تعرفهم بسيماهم ولتعرفنهم في
لحن القول » حتى ان العلاقة بين ما نسميه اليوم بـ (تحت
الشعور) و (الشعور) لم تخف على الذهن العربي وليست
الزكاة الا المبحث المتعلق بصلة الضمير بالوجدان . ونقتبس
هنا المثال الآتي من كتاب « مفتاح السعادة » لابن القيم حيث
يقول : « حكى عن المهدي انه رأى رؤيا ونسبها فأصبح مغتماً
بها فدل على رجل كان يعرف الزجر والفأل والتعبير وكان
حاذقاً واسمه خويلد . فلما دخل عليه أخبره بالذي اراده فقال
له : يا امير المؤمنين صاحب الزجر والفأل الى الحركة فغضب
المهدي وقال : سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدري ما هو
ومسح بيده رأسه ووجهه وضرب بها على فخذه ، فقال له :
أخبرك برؤياك يا امير المؤمنين ، قال هات قال : رأيت كأنك

صعدت جبلاً ، فقال المهدي : لله أيوك ياسحار ، صدقت ،
قال ، ماأنا بسحار بأمر المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على
رأسك فزجرت لك بنزولك الى أرض ملساء فيها عيمان مالحتان
ثم انحدرت الى سطح الجبل فلتيت رجلا من فخذك ، قريش ،
لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على فخذك فعلمت أن
الرجل الذي لقيته من قرابتك قال : صدقت .

وهاهنا نرجع بالذكرى الى سنة ١٩٣٤ ، فلما سرحت من
وظيفتي كمدرس من قبل سلطة الانتداب لجأت الى القرية حيث
كانت تقيم والدي ؛ و كنت و اياها نتبادل الحديث في الليالي
الممطرة وكم كانت دهشتي لما رأيت تأملاتي تلتقي مع حدسها في أمهات
المسائل ، فكانت دراستي المديدة ليست الا سبباً لاستجلاء الحدس
المشترك بيننا ، الحدس المنطوية عليه نفساناً ، و كانت والدي
قد عبرت عن ذلك بقولها : سبحان الله يا ابني ، انك لم تتبدل
منذ كنت أحملك على صدري وكل ما في الامر انك أنك كنت
برعماً فتفتحت زهرة . ولذلك فاني أعتقد بأن الاختلاف بين
فرد وفرد من أبناء الأمة انما هو اختلاف بدرجة الوضوح
الأمور المتعلقة بالأصول . فما هو حدس مبهم عند الجمهور يتحول
الى بصيرة نيرة عند القادة . وذلك ما يحمل على الاعتقاد أيضاً

بأن ما يتجسد من شبه بين الأفراد المحدثين من ذات الأصول،
وبين ما يظهر من انسجام في المؤسسات العامة يرجع الى آية
الأمة المتحققة عبقرية في الطبيعة، يرجع الى تجربة الاجداد
المثلى في أصول الحياة وليس التاريخ الاسجل هذا التحقق كصير
يحصل من انتصارات الحياة على القدر الغاشم.

تظهر العبقرية العربية بوضوح في انسجام مؤسساتنا العامة
وفي انسجام كلماتنا التي تقوم هذه المؤسسات على استجلاء حدسها.
أليس من الغرابة بمكان أن تكون هذه الكلمات قد وضعت في
عصور متفاوتة وأقاليم متباعدة وهي مع ذلك ذات انسجام
بالمعنى؛ انه ليخيل للمتأمل فيها أنها وجوه مختلفة لذات العبقرية
واليك بعض ماورد في كتابنا « العبقرية العربية في لسانها »
في هذا الصدد :

« تبدر الأمة البدائية في الكون حاملة سيماءها بصورة مجملة
فتفتتح عنها بتجارب تجلياتها بين قطبيها : قطب ترتسم به في بنية
ابنائها معرفة متبلورة وفي الكون عالماً تنعكس عنه الطبيعة
محددة امكانية ادراكهم ، وقطب آخر ترتقي اليه النفوس من
خلال هذه التجليات المستشفة في تسامياها بنور ذاتها .
وها نحن نورد بعض الامثلة المنقبة من اللسان العربي أيضاً

ايضاحاً لما تقدم وتثبيتاً لبدائية الأمية التي أوجدهه : فكلمة (نب) مثلاً المؤلفة من حرفي (نون) و (باء) تعبر بحسب مخرج كل من حرفيها عن الصميم (بالتون) وعن الظهور (بالباء) وبجملتها تقييد الانتقال من الداخل الى الخارج فالظهور التعالي . وعند التحليل تظهر جميع الكلمات المنتسبة الى اسرة هذا الحدس اتجاهاته الأساسية :

١ - لما كان الصوت أبرز ما يخرج عن صميم الانسان فن أكثر المصادر قد تضمنت مشتقات تشير اليه (نب التيس : صاح) ؛ (نبأ : صات خفيفاً) ؛ (النبأة والنبؤة : الصوت الخفي أو الهاتف) ؛ (فبغ : كان شديد الصوت جافي الكلام) ؛ (نبغ الكلب : صات) ؛ (النبغة : التكتة) ؛ (نبر المغني : رفع صوته بعد خفض) ؛ (نيس بالمجلس : تكلم) ؛ (نبض في المجلس : تكلم) ؛ (نبض العرق : تحرك وضرب) ؛ (أنبض القوس : جذبها ليصوت بها) ؛ (أنبط الكلام : استخرجه) ؛ (نبغ الرجل : قال الشعر وأجاده) .

٢ - هنالك اتجاه آخر نظهره على الخصوص الصور الحسية والخيال الذي أنشئ منها وهو الصعود والتعالي : (نبأ الشيء : ارتفع) ؛ (النبىء : المسكان المرتفع) ؛ (نبت : نشأ ونمى

من الأرض) ؛ (نبس فلان : غضب : ظهرت كوامنه) ؛
 (النبخة : الأكمة) ؛ (نبخ العجين : اختمرو وانتفخ) ؛ (الأرض
 النبهاء : المرتفعة) ؛ (المنبوذ : الولد الذي تلقىه أمه) ؛
 (النبذ : عصير العنب) ؛ (نبز الغلام : تعرع) ؛ (نبز :
 الجرح : تورم) ؛ (النبص : القليل من البقل اذا طلع) ؛
 (نبق الشيء : خرج) ؛ (نبك المكان : ارتفع) ؛ (النبكة
 الأكمة) ؛ (النبأة : المرتفع المشرف) ؛ (النبيء من الأرض :
 ما ارتفع منها) ؛ (النبوء : العلو والارتفاع) .

٣ - ولما كانت الصورة الصوتية البدائية بيانية ونشأتها
 انسانية فان الحدس يتفرع الى المعاني الاصلية الآتية : النبوة
 والنبي وصورته الحسية : الطريق الواضح والمكان المرتفع ؛
 والنبوغ والنابع وصورته الحسية : غبار الرحي (الدقيق) ،
 والنبيل والنبيل وصورته الحسية : النبال والسهام (الفروسية) ؛
 النباهة والنبية : اليقظة من النوم والشرف .

يبدو التوافق في الامثلة المتقدمة بين المعقول والمحسوس
 دقيقاً والانسجام في معانيها شاملاً رغم أن هذه الكلمات قد
 أبدعت في عصور متفاوتة وفي أقاليم مختلفة فكان هنالك عبقرية
 قد انطوت عليها نفوس أبناء هذه الامة كافة فعبر كل منهم عنها

من وجهة نظره الخاصة وهم منها يستمدون نفسهم واليهما يصبون
كمثل أعلى وبها تنسجم ثقافتهم : (بنيانهم الانساني) مع الميول
التي تضمنتها نفوسهم .

ويؤخذ من هذه الامثلة أيضاً أن الحدس فيها تتقدم على
الصورة الحسية والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها
الاساسية كتقدم الميل على الاشياء (حاجاته) التي تحققه فيحدد
انتباه الفرد ويوجه اختياره فيكشف عن قرارة الحياة المرتسمه
على الكون بأثاره . »

ولئن شيد أعلام أمتنا صرح مؤسساتنا العامة باستجلاء
ماضى في كلماتنا من معنى فقد جاء كياننا التومي متلازم
الاعضاء في الجسد . ان الامة العربية عبقرية أبدعت أداة بيانها أبداعاً
أفصحت به عن حقيقتها فأصبحت بذلك كالقصيدة التي توحى
انسجام الفاظها وجود الفنان الذي أبداعها . والحدس في الكلمة
العربية من صرح الثقافة هو بمثابة البزرة من الشجرة والخيال
يقوم في استجلاء الحدس مقام البيئة في انماء البذرة مما يحمل
على الاعتقاد بأن هذه الأمة ليست كغيرها محصلة ظروف
تاريخية او جملة ذكريات وأمانى بل انها معنى مبدع يبدع تجلياته
ويوجهها حسب وجهته في الحياة . فهي ، من حيث الظهور على

مشرح الانسانية ، على غرار ظهور الأنواع الحياتية في الطبيعة .

مامن أحد ينكر مالمبيئة من تأثير على الأحياء ، من أنواعها الابتدائية الى الامم الزاهية في الحضارة . فأى منا لم يلاحظ مالاقليم من تأثير في تحول بذرة البطيخ من نوع (الجلب) الى النوع البلدي . وأى منا لم بلغة أجنبية ولم يلاحظ مالهذا الامام من تأثير في تكوين عقليته تكويناً خاصاً . وكما يستعير الشاعر من البيئة الصور ليعبر بها عن أهامه مجازاً يتعين أيضاً مصير الامم الى حد ما بموقعها وطبيعة تربتها . أفلم يعين مصير كل من فينيقيا في التاريخ القديم ، وانكلترا في الحضارة الحديثة ، بموقعها الجغرافي ؟

لكن تأثير البيئة هذا يتبع تفسير الحياة لها وهو في اتجاه عبقريتها . فاذا زرع بذر البقدونس والبصل ، مثلاً ، في نفس الشروط الطبيعية فان كلامن النوعين ينمو حسب طبيعته الخاصة وكذلك هي حال الأمم ، فقد أقام في منطقة ازمير كل من اليونان في العهود القديمة والأتراك في العصور الحديثة ، وكان الشعب الأول قد شق من هذه البقعة في العالم طريق التفكير الحديث في الفلسفة والعلم ، أما الأتراك فلم تبدر عنهم حتى اليوم

أية ظاهرة أصلية في المدنية أو في الثقافة .

واستقلال الأحياء بالمصير عن بيئتها . يكون متناسباً مع
نمو عدائها ، أي مع نمو المدة بين انعقاد الحياة على الرشيم وبين
الشيخوخة . فإذا كانت الأنواع الابتدائية ذات العدان القصير
الآمد ، لبرغش مثلاً ، تخضع لأراجيف البيئة فإن الأنواع
الراقية ذات العدان الطويل الآمد ، كنوع الفرس ، تصمد
في وجه التقلبات التي تحصل خلال مواسم السنة حتى إذا اضاف
الإنسان إلى حالة الاستقلال عن ظروف البيئة أمر إدارة
الحوادث وتوجيهها فإن الفضل بذلك يرجع إلى عدائه البالغ
بالمدي حتى الخمسين عاماً .

« ان الحياة ، ككل منظومة ، ذات معنى وصورة :
تمس بالصورة الضرورية Nécessité وتسمو بالمعنى إلى الحرية .
إنما هي مبنى فاعده في الأرض وأوجه في الملاء الأعلى . وإذا
مست الحياة الضرورية بمنظومة الخلايا التي يتألف منها الجسد فهي
تستمد من هذا التماس قوتها الذي يقوم عليه عدائها حتى لكأنما
العدان وفرف (érentail) تنشر عليه فحواها كما ينتشر الألام
على المنظومات الاهتزازية التي تنطوي عليها انغام الانشودة ؛
أو لكأنما هي تكشف عن غنى فحواها بصورة متناسبة مع مدى

اتصالها هذا بالطبيعة - من رسالة الفن للمؤلف .»

والامم يكون استقلالها بالمصير عن الظروف تبعاً لنفس
المبدأ . ولناخذ كمثال : اليمن وبريطانيا : فالاولى تنكفى على
نفسها وتسعى جهدها للاستغناء عن العالم حرصاً على سلامتها بينما
تحاول الثانية ان تزيد دائماً من الروابط السياسية والاقتصادية
بينها وبين جميع انحاء العالم . فايها تخضع الظروف لما ربهها : ادولة
اليمن ام بريطانيا ؟ ! وعبقرية ايها تنكشف حسب طبيعتها ،
اعبقرية العرب في اليمن ام عبقرية الانكليز ؟ ! وتتحور عبقرية
الامة من ضرورات البيئة مع تقدم الثقافة بصورة خاصة اذ ان
المعنى يعدل من وطأة العوامل الطبيعية على مجرى شؤون الحياة
في انكشافها حتى اذا تعارضت الاسطورة في نشأة الانسان عند
كل من الآريين والسامين اعتبر هؤلاء الانسان ابن السماء
(الثقافة) واعتبره اولئك ابن الارض (المدنية) فان كلامن
فرعي العرق الابيض هذين قد استوحى وجهة نظره في الوجود
من كيانه الخاص : تتجه الشعوب الهندية - الاوروبية فتستقر
في ملاءمتها للضرورات البيئة دائمة في استرسالها على اقامة العلاقات
الاجتماعية السياسية على مبدأ الجوار بحيث تتحول هي الى
مجتمعات ذات تنوع تبعاً لتنوع الاقاليم الطبيعية في حين تبقى

الشعوب العربية السامية متجهة نحو السماء متخطية بصوتها حدود
الحواجر بين الاوطان . واذ قال عمر بن الخطاب لاحد الاعراب
« لا تقل انك من قرية الفلانية بل قل انك من العشيرة الفلانية »
فقد افصح عن المنحى الثاني الذي تنحوه العبقريّة العربية .

كذلك هي الحياة ، فان تستمد من البيئة القدرة التي تتحقق
بها والتي منها تنشئ بدنّها كمجموعة اوائل تجعل بها الظروف
طوع مشيئتها ، فانها ايضاً مصير ذو تطور على مراحل وفي اتجاه
مستقل عن الحوادث الطبيعية في تلازمها تلازماً مستديراً وفي
خضوعها لمبدأ الكم والمسافة . حتى انها ، اذا ما تجملت لذاتها ،
بدت وحدانية دائبة المسعى للاستقلال بمصيرها عن قدر الحوادث
الطبيعية و كذلك هي الامم فان ازدادت نقاط ارتباطها
بالطبيعة ، مع تقدمها في الحضارة فان مصيرها يزداد بهذا
التقدم تحمراً .

وان تدل الحياة بانسجام مظاهرها وبتقدم انواعها على مسرح
الطبيعة وبسيطرة الانسان على البيئة ، على انها ذات نزعة تدفع
بها الاحياء الى الارتقاء نحو الافاق المتعالية ، فان الامم ايضاً
تعبّر عن وجهة نظرها في الوجود باصطفاء ما ثراينها كثرات .
وهل القوانين والعرف والتقاليد الا صور مصطفاة بقصد التعبير عن

وجهة النظر هذه ؟ انها مؤسسات تعبر عن حقيقة الامة في علاقتها
مع البيئة كما تعبر الاحياء عن حقيقة الحياه في علاقتها مع الطبيعة
العلاقة التي تظهر في نظام اجهزة الكائن الحي وفي ماينجم عن
هذا النظام من اختلاف في الانواع (بدا الانسان، حافر الفرس،
مخلب الاسد، برثن العصفور خف الجمل .. كلها تحولات لنفس
المخطط، تحولات قد نتجت عن وجهة نظر النوع في الدنيا واما
اقتضاه وجهة النظر هذه من ملاءمة مع ظروف البيئة). الا
ان المؤسسات محاولات تقريبية في التعبير عن حقيقة الامة بها
يتجلى قوامها الذي يرجع اليه الانسجام بين اعمال الاجيال في
تشديد صرح مجتمع ذي مظاهر متلازمة متتامة.

وهل تقف المؤسسات العامة عند حد التعبير عن اختيار
الامة. اولم تكشف ايضاً عن خطوط سيمائها المرئسة في بنية
ابنائها كسجايها حتى ان اصالة الامة لتقاس بمدى التجاوب بين
الحدس المنطوية عليها نفوس ابنائها وبين المؤسسات التي شيدها
اعلامها، اصالة تشتد بها الحياة وتتركو.

يخيل للناس في اول وهلة ان العلاقة بين الاحياء والبيئة
تقتصر على سد الحاجات وعلى اقتباس الصور بطريق الحواس.
لكن الحقيقة هي ان العلاقة المذكورة ابعد مدى مما خيل لهم

انها تتناول نظام الجسد بأجمعه ، ما يتعلق ببنينه الداخلية وما
يتعلق بموقفه من العالم .

« افلم تظهر الانواع الحيوانية بالتدرج على مسرح الطبيعة
مزودة بحواس بديئة وميول جديدة؟! او لم ترجع الحياة ،
ببنياتها المتكامل هذا ، حدود الضرورة اي الم تقشع بالحواس
ما كان مغلقاً وبالميول ما كان مستعصياً؟ - رسالة الفن للمؤلف .
ذلك ما حمل على الاعتقاد بأن الحياة معنى البيئة وهي منها
بمثابة المصمم من المبنى . افليس لكل اقليم نوعه البشري كما له
نوعه النباتي والحيواني؟! او لاتدعو البيئة الحياة لدى كل تبدل
طارىء الى اعادة النظر في نظام كيانها . واعادة النظر هذه
تحتل كل الدرجات من تحول يطرأ على كيان الفرد الى ظهور
نوع حيواني بديء في الطبيعة . حتى لكأنما النوع استجابة الحياة
لانقلاب في الكون ؛ او لكأنما هو مغزى الانقلاب من وجهة
نظر معينة . واذا ما تبدل الدور ولم تستطع الحياة ايجاد منظومة
من الرجاء (Reflexee) تتلاءم بها مع البيئة المستجدة اندثر
النوع المتبلور فيه النزعات حتى الجمود .

والاختلاف بين الانواع الحيوانية لا يقف عند الاختلاف
بين الاجهزة التي تتلاءم بها الحياة مع البيئة بل يتعداها الى

التفاوت بينها بالعمق ايضا ولولا ذلك لما صنفت الانواع في سلم
ذي درجات متفاوتة .

ان الانسانية تتمم ما بدأت به الحياة ، والحضارة منها بمثابة
الجسد من الاحياء : على تقدم كل من هذين الجوانب يقوم امر
تحور المعنى من ضرورات البيئة تحمرا تقترب به الظواهر من
حقيقتها سواء اكان ذلك في عبقرية الفرد ام في عبقرية الامة .

ان ظهور الامة على مسرح التاريخ مماثل لظهور الالهام
في الوجدان او لظهور النوع الحيواني ذي الطابع البدئي على
مسرح الطبيعة ؛ وكما ان الالهام ينجم في الوجدان كاستجابة
تجيب بها النفس على جملة رموز مرتسمة صوراً في الدماغ ؛ وكما
ان النوع يبدء على مسرح الطبيعة كاستجابة تجيب بها الحياة على
انقلاب في البيئة فكذلك تظهر الامة في تاريخ الانسانية
كعتيدة . ان الامة تجربة ورحمانية في الوجود قدا اجابت بها
النفوس على ظروف طبيعية اجتماعية مشتركة . وانه على عمق هذه
الاجابة تقاس اصالة الامة .

« وان تمثيل الفرد هذا لما يتمم عنده الجمهور يظهر في
الاحوال المألوفة عند ما يقال : انه سبقني الى الفكرة ، والفكرة

تحت لساني . ويظهر ايضا في انتشار الازياء وفي شيوع الراء
كموجة في فترة معينة من الزمن . ويبلغ مداه من الظهور في
النبوة حيث تسبر اغوار الحياة ويكشف عن الحقائق الخالدة
فتحل على ضوء ذلك المسائل المستعصية .

واذ قيل : ان العنب يسود لدى رؤية بعضه بعضا ، عني
بهذا القول ان النضوج يأتي من الداخل وانما البادرة بشارة بقرب
الموسم . لكن البادرة في الشؤون الانسانية ذات شأن فهي ،
وان كانت عبارة يتجلى بها ما يتمخض عنه المجتمع من معنى ،
الا انها عبارة توحى للاخرين بالمعنى الذي تعسرت به النفوس
في الولادة بحيث يصبح المبشر مبدعا وقدوة للاخرين .
وعلى هذا فان التجانس في المجتمع والانسجام بين مؤسساته
ليس الا مظهر المعنى المنبثق من اعماق الوجدان وان العبارة
المرتسمة على محيا ابناء الامة انما هي سمة هذا المعنى في التجربة
المثلى .

هكذا تعكس المؤسسات الاجتماعية والاوزاع العامة
ما انطوت عليه قرارة النفوس من مثل اعلى .
وهكذا يدل اختبار المآثر والانسجام في اصطفاؤها على

تكوين الدين اختاروها تكويها مشتركا .

الا ان المجتمع يعكس بمؤسساته مقتضيات البيئة من وجهة نظر معينة ، بل يعبر بها عن صبوة الامة نحو المثل الاعلى وما تستلزم هذه الصبوة من جهد وعناية . كما ان طبيعة النوع في الاحياء تتحدد بما يحصل من تفاعل بين الحياة والبيئة وبما تحمل الحياة من استعدادات خاصة . تتحقق الامة بالمجتمع كمثل أعلى تراهى من خلال الطبيعة بما يعترى ذلك من امور عرضية . اما قوام الامة فيتجلى بمنظومة من القيم منها ما يقوم عليه كيان الافراد والمجتمع ومنها ما يتخطى بصوته حدود المصلحة معبرا بزهوره عن ماهية الامة ذاتها .

واما كيف تبدو الامة على مسرح التاريخ كعقيدة فذلك ان الصلة بين النفس والمرحلة التاريخية هي على غرار الصلة بين الجسد والبيئة الطبيعية ، تكشف النفس عن درجة عمقها بتجاوب قطبيها : الصورة والمعنى ، الطبيعة والملا الأعلى ، وتم شخصيتها عن وجهتها في المرحلة التاريخية ، مثلها بذلك كمثل الجسد الذي يعبر بمدى نموه عن التجاوب بينه وبين الطبيعة ، او يدل بطبيعة وظائفه على وجهة التجاوب .

« فكأن الصورة المرتسمة في الدماغ ، بنزعة قواعدها ،

العادات نوعة متقاربة ، تستدرج الايات من الغيب الى الوجدان
تستدرجها على ضوء الذكاء الحاصل من التوافق بين الصورة
والمعنى . «رسالة الفن للمؤلف .

تقوم صلة الناس بالمرحلة التاريخية على استقطابهم النزعات
المتبلورة رموزا في البيئة استقطابا تتحول به الرموز الى حدس
مستنيرة . ومتى ما نجم الحدس في الوجدان بدر كمعنى ذي
مصور ، فمن حيث هو معنى يصبح مفهوما ملخصا لما تخضت
عنه نفوس الجماعة ، ومن حيث هو مصور ينمي بتحقيقه الحياة
وذلك بتحويله عدانها الى مداد آخذ بالدقة . فينتقل بهذا النمو
ما اكتسبه الفرد بتجربته الخاصة الى تراث يرثه الاولاد
بالفطرة .

كذلك هي الامة ، الهام ذو نظام ، اصولها في الملائاةلى
وتجلياتها تتبلور في سجايا ابنائها وفي مؤسساتها العامة .

وكذلك تختلف الأم بعضها عن بعض في مدى اغوار
تجارها الرحمانية وفي نبرة الايقاع في نظام قيمها . اما الاغوار
فتتجلى في نفوس القادة كعقائد واما نبرة الايقاع فتترسم على
محيا ابنائها وكنظام قيم في تراث الجماعة .

ان مثل الامة كمثل القصيدة ، هذه تتأرجح بين الالهام

والالفاظ ، بين المعنى المستفاض من تجربة الفنان المثلي
كالهام وبين المعاني المتعارف عليها في الالفاظ التي منها ينسج الفنان تحفته
الفنية ، وتلك يتردد كيانها بين العقيدة والعرف ، بين الصبوة
المشتركة نحو المثل الاعلى وبين تقاليد الجماعة .

وإذا كانت الامم تلتقي بالقاعدة حيث تمس الحياة مأخذ
قوتها الطبيعية ، (النظام الاقتصادي بحسب كارل ماركس) ،
وإذا كانت تلتقي في الذروة ايضاً حيث تستقر الحقائق الخالدة
(كالتناء المسيح وأفلاطون مثلاً في تأملاتها) فإنها تختلف في
نظام كيانها وفي اصطفاؤها ماثر أبنائها . فمنها من يؤثر السيطرة
على الطبيعة ومنها من يبقى رائده الملاء الاعلى ومنها من يتعثر
في سيره نحو الغاية .

ان كلا من الامم ترى الوجود من خلال كيانها وإذا
افترض الوجود الاثير اصلاً للوجود فإنهم قد عبروا بهذه
الفرضية عن كيانهم السديمي الايل الى الانهيار . وإذا وضع
اليونان الجوهر الفرد (atome) كعنصر مقوم للاشياء فقد
عبروا عما كانت تتمخض عنه شخصيتهم من مثل اعلى ذي معالم
محددة كالتمثال . ولما أخذ لامارك (Lamarque) يفسر انواع

الاحياء باتزان العلاقة بين الفرد والمحيط كان يشير الى ما تنزع
اليه فرنسا من ثبوت واستقرار. وليست نظرية تطور الانواع
الا صدى لتطور انكثرة التي وضع أحد ابناءؤها ، داروين ،
هذه النظرية ، الا يتلخص تاريخ الانكليز بظهور الموهوبين
وبنزوع الجميع للتفوق وتثبيت صفات المتفوقين في الاجيال
بطريق الاصطفاء ؟ ! ان التطور الملحوظ في تاريخ الارض
والتحول الذي يحصل على سطحها ، وان كانا قد اوحيا الى
داروين فكرة نشوء الانواع ، الا ان المجتمع الانكليزي هو
الذي هدى هذا العالم الى نظريته بنزعه الى الارستوقراطية
والديوقراطية معاً ، بنزعه الى اصطفاء المواهب وتثبيتها في
الموهوبين ، وبنزعه الى ارتقاء الطبقات الاجتماعية نحو التفتح
بحيث يشترك الجميع في تعيين المصير العام على مقياس أوسع
فأوسع .

كذلك هي الأمم ، لكل منها نظرتها في الأشياء ، عنها
تنبثق وطابعها تحمل .

وكذلك هم الأعلام ، كل منهم يستقطب تيارات بيئته
فيعبر عما يصبو اليه المجتمع بوحدة نظر شخصيته .

اما نظرة العرب المستوحاة من طبيعة أمتهم فهي القبة

المستعارة صورتها من قبة السماء ، ترمز هذه الصورة الشعرية الى كل من مراحل تاريخ العالم فيمثل اوجها الرسول الذي هو معنى المرحلة المتجسد بشرا ، والناس فيها على درجات ، تتعين مراتبهم بنسبة اقترابهم من الأمنية . واذا كانت كل من القبة ترمز الى احد الاسماء الحسنی فان تسلسل القبة في تاريخ العالم يرمز الى وثبة الحياة في انتقالها عبر الاجيال .

« ان الامة العربية ، وهي ينبوع الشعوب السامية كافة ، عالم بذاتها ، لم تأفل منذ ظهور الانسان على مسرح التاريخ ، وهي تظهر بفيضها في كل مرحلة ما تراكم من آثام على الشعوب فتهدى الى تحقيق أهدافها ، ، مثلها كمثل اصل الوجود (nébclorsité) يتكاثف حينئذ ثم يتناثر بعد حين فتتجم الشموس عن تكاثفه ثم تنتهي بتناثرها في الاثير ، كذلك هي الامة العربية وهي عبارته فانها ابداء شرقة بنورها على الانسانية وقد تبدو حينئذ مفككة متناثرة ، ابناؤها منزوون في قوقعة من الانانية ، الا انها لا تلبث حتى يسطع منها نبي او زعيم فيبعث بها من جديد ويلقي النور الحاصل من تأججها شققا على العالم أجمع فيهدي الأمم حينئذ بنارته الى تحقيق رسالتها وعند ذلك تتجدي هذه الامة تقديرات المؤرخين .

أفمن العجب بعد هذا ان اوصى العرب فكرة الخلود الى
العالم ، الفكرة المستوحاة من طبيعتهم المتصفة بالخلود .

ان الامة تقوم على التعاطف الطبيعي بين الاخوان كقيام
الاسرة على المودة بين ذوي القربى . وكما ان هذه العاطفة
تسبق كل فلسفة متعلقة بنشأة الحياة ، فكذلك الشعور الذي
يربط الفرد بمصير أمته يبدو في النفس بمثابة البداة . واليك
بعض الحوادث التي تعزز هذا الرأي .

اولا : قامت مناظرة بين النعمان بن المنذر و كسرى
ملك فارس في الجاهلية . فقال النعمان لكسرى : « أي أمة
تقرنها بالعرب الا فضلتها » . قال كسرى . « بماذا » . قال
النعمان : « بعزها ومنعتها وحسن وجوها وبأسها وسخائها
وحكمة أسنتها وشدة عقولها وانفتها ووفائها ... واما حسن
وجوها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند
المنحرفة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة ، واما
انسابها واحسابها فليست امة من الامم الا وقد جهلت آباءها
واصولها ... وليس احد من العرب الا يسمي اباؤه أباً فأباً
احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل في

غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعي الى غير ابيه ،
واما سخاؤها ... فيرضى العربي ان يخرج عن دنياه كلها في
ما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر ... واما دينها
وشرفها ... ان لهم اشهر احرما وبلدا محرما ... فيلقي الرجل
قتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثاره فيحجزه كرمه ويمنعه
دينه عن تناوله بأذى ، واما وفاؤها فان اقدم يلحظ اللحظة
او يومىء الايماء فهي ولس (عهد) وعقدة لا يجلها الا خروج
نفسه وان اقدم يرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه
فلا يعلق رهنة ولا تخفر ذمته وان اقدم ليبلغه ان رجلا
استجار به وعسى ان يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى
حتى يفنى تلك القبيلة التي اصابته او تقضى قبيلته لما احتقر من
من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا
قراية فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون امواله .

واما قولك ايها الملك : « يتدون اولادهم » فانما يفعله من
يفعله منهم بالانات انفة من العار وغيره من الزواج ... حتى
لقد حاولوا ان يكونوا ملوكا اجمعين من انفتهم من دفع
الحراج .

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى

من تنقص العرب وتهجين أمرهم بعث الى الكثم بن صيفي
وحاجب بن زرارة التميميين والى حارث بن ظالم وقيس بن
مسعود البكرين والى خالد بن جعفر وعلتمة بن علاثة وعامر
بن طفيل ... فلما قدموا عليه في الحورنق قال لهم: « قد عرفتم
هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت من كسرى
مقالا تخوفت ان يكون لها غورا ويكون انما اظهرها لامر
اراد ان يتخذ به العرب خوفا (عبيدا) كبعض طباطمته في
تأديتهم الخراج كما يفعل بملوك الامم الذين حواه ... »

ثانيا : واليك ماورد في (تاريخ العرب لفليب حتي في
هذا الصدد :

« في اثناء حصار القسطنطينية نظر يزيد الى قبتين مبنيتين
عليهما بشياب الديباج فاذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احداهما
اصوات الدفوف والمزامير واذا كانت الحملة للروم ارتفعت
اصوات من الاخرى فسأل يزيد عنها ف قيل له هذه بنت
ملك الروم وتلك بنت جملة بن الايهم وكل واحدة منهما تظهر
السرور بما تفعله عشيرتها فتحمس يزيد ان يقبض على ابنة
ملك غسان ... »

« فالقسم الوحيد من شبه جزيرة ايبيريا (الاندلس) الذي

تأصلت فيه جذور الاسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة
السامية القرطاجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صقلية
وهي حقيقة على شيء من الأهمية ، فقد كان الخط الفاصل بين
الاسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين
المدنية الفينيقية والمدنية القربية . ولم ينته القرن الثالث عشر
حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضوا تحت لواء النصرانية
اما عنوة او صلحاً ، واكنهم ظلوا متمسكين بشرائعهم
ودينهم .

ولقد اقر الاسلام الروابط الطبيعية بين ذوي القربى الى
جانب رابطة الايمان المشترك : « ووصينا الانسان بوالديه ...
وان جاهداك ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما
وصاحبهما في الدنيا معروفا » ، القرآن الكريم ، « قد نرى
تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك
شطر المسجد الحرام » القرآن الكريم ،

حتى ان روسيا نفسها قد اقرت الكيان الطبيعي لكل
من الامم التي تخضع للنظام الشيوعي المشترك .

وهكذا يعترف كل من ممثلي الطب الروحاني وممثلي القطب

المادي بما لاحكام الطبيعة من أثر في تطور البشر .

يبدو الامة للمتاامل في مظاهرها العامة كمنظومة (system) فهي من حيث حدود معالمها مغلقة ككل منظومة حتى ولو التبس فيها الاصيل بالدخيل عن طريق التقليد والاستعارة . وهي من حيث الصميم تتفتح لدى تمثيلها في الذهن نحو المثل الاعلى ، شأنها شأن كل منظومة . ان كلا من مقومات الحياة العامة يتحول لدى الوعي من رمز الى معنى . حتى اذا ما استقطبت المعاني متقاربة في الوجدان اشتدت الصبوة الى الآية التي هي حكمة وجود النظام .

وايضاحا لوجهة النظر تلك نأخذ من بين ظواهر الحياة العامة ، كاللغة والتشريع والديانة الخ . . . ، ظاهرة نستند اليها في عرض موضوع بحثنا . ولتكن اللغة هذه الظاهرة باعتبار انها اكثر التصاقا بالامة وابلغ تعبيراً عنها . لاسيما وان المؤسسات العامة تقوم في غالب الاحيان على استجلاء الحدس المتضمنة في الكلام كما تقوم الحياة عامة على استجلاء ماضر في الافراد من استعدادات .

انه لمن المعلوم ، بالبداية ، ان اللغة تتألف من صور صوتية ككلمات ومن معان تنطوي عليها هذه الكلمات كحدس ، وهي جملة كل منسجم تتميز عن اية لغة اخرى بانسجامها الخاص .

وطابع اللغة البدئية يشمل الحروف والحركات وهو يظهر
بجلاء اكثر في المفردات والقواعد . حتى اذا ما شردت احدى
الكلمات من لغة الى اخرى فانها سرعان ما تخضع لنظام هذه
اللغة الصوتي بحيث يصعب فيما بعد تعيين هويتها من قبل اصحابها
القدامى ، وكمثل لهذا التحول العميق المماثل لتحول الاغذية
الى انسجة في البدن نورد بعض اسماء عربية الاصل كال (لصبية) ،
و (المجدلية) و (ياهو) ؛ الكلمات التي تحولت الى (اليزابيث)
و (مادلين) و (جيهوفا) في اللغات الاوربية . ولا يبقى
التحول عند تلونات الاصوات ، بل يتناول المعاني ايضا ،
وتاريخ الكلمات ، كالألفاظ بل كمفاهيم ، شاهد على ذلك
ولامسا اذا كانت المفاهيم ذات علاقة باصول الحياة الانسانية
حيث تضيف الآيات رواءها على المظاهر فتجعل المعنى يحمل
طابع الجو الفكري الخاص بالامة . حتى ان العقائد الاكثر
دقة والمبادئ الابلىغ بيانا تخضع لهذه القاعدة .

هكذا اختلف مدلول كلمة ديموقراطية من امة الى امة ،
وهكذا اختلفت الامم في فهم الاسلام والمسيحية وفي تفسير
احكامها ، كل منها يسلك طريق عبقريته الخاصة .
ان الحياة تظهر منظومة في الاحياء على تفاوت درجات

انواعها وفي الامم على اختلاف مراتب مؤسساتها من حيث
الانسجام . ولا سيما اذا كانت المؤسسات العامة كالادب
والاخلاق والنشريع منظومات تعاون على تشييدها النوابع
مع الجمهور بالاستناد الى استجلاء الحدس المتضمنة في الكلمات
حتى جاءت كلا اجزائه متلازمة متتامة كما هي الحالة في كيان
امتنا . والامم بذلك على غرار الاحياء ، تقاس عبقريتها
بعمق تجربتها الرحمانية ، بعمق يظهر في اصالة مؤسساتها العامة
وفي شمول طابعها للاشياء .

وتبيانا للفرق بين عبقرية امتنا وعبقرية الامم الاخرى نرى
من المفيد اقامة المقارنة بين المؤسسات العامة عندنا وعند غيرنا :
ان كلماتنا تبدأ جميعا بالاصوات الطبيعية . فمنها صوت
خرير الماء (خر خر خر) المؤدي بالاستقاق الى (خرب
وخرج ..) ؛ وصوت غليان الماء (فق ، فقفق) المؤدي الى
(فقأ وفتح ...) ؛ وصوت سقوط الماء متقطعا (تر ، تتر)
الذي هو اصل لافعال (تر ودر وذر ...) ؛ ومنها اصوات
(آخ وأن) التي تعبر عن الهيجان عبارة طبيعية ؛ ومنها اصوات
(بت وقد) التي تحصل في الفم .

ولدى التأمل في كلامنا يتبين ان العلاقة بين المعنى واللفظ

تقوم ، اما على اقتران الصوت بالشيء كاقتران صوت الحزب
بما يحدثه الماء من تأثير في مجراه : خرب او خروج .. ، واما
اقتران الصوت بما تجيب النفس عليه من معنى كصوت الانين
والمعنى المقابل له : الداخلة او الصميم و كصوت : آخ ومعناه
التوجع و كصوت غيم ومعناه الغيبوبة ، كل بحسب مخرجه
وما يلزم عنه من صدى في الوجدان .

وهذان الاتجاهان في نمو لساننا يؤديان مبدئيا الى مجموعة
من الكلمات . فاما المجموعة الاولى كحزب وخرج وخرذ
وخرم فينقلب عليها الطابع الافقي للاشياء . واما المجموعة الثانية
كأنا وأنت وأن وعن ومعنى وعناية فيتغلب عليها الطابع
الانساني . ولما كان النمو في اللغة يخضع مبدئيا لتجاوب
الصورة الحسية مع المفاهيم العقلية من جهة وبين الصورة الحسية
والآيات من جهة ثانية فقد ظل كيان لساننا ذا انسجام بين
الصميم والمظهر على مثال الانسجام بين الاعضاء والوظائف في
الحياة التي اوجدته كأداة بيان لها . ولهذا فان الكلمة الدخيلة
تبقى نابية في لغتنا فتشير الاجيال عليها كما يشير الشوك انسجته
الجسد لدفعه .

وأية لغة من لغات العالم تقاس من هذه الوجهة بلساننا؟!

اهي اللغة التركية وفيها يتعدى الدخيل حدود التسعين
بالمئة ! ام هي اللغتان الفرنسية الانكليزية وقد قام كيانها على
تبني الكلمات الدخيلة !?

ولننتقل الآن الى ظاهرة اخرى من ظواهر حياتنا العامة .
وليكن مثالنا في هذه المرة الشريعة ، ان قوانيننا ترجع بالمبدأ
الى آيات اصولها في السماء كما ترجع كلماتنا الى اصوات صولها في
الطبيعة . وكلتا الظاهرتين يتخطيان بجذورها تاريخ الى ما هو
فوق الزمن . واذا استعار حكمانا بعض القوانين تمثيلا مع
التطور على حد قولهم فانهم من الدخلاء على امتنا . ومع ذلك
فقد ظلت هذه الاحكام دخيلة نابية عن ذوقنا بالعدالة .

اما ماشيد من صرح فقهي من قبل اعلام امتنا فيقوم على
مبدأ الاشتقاق كما تقوم كلماتنا على نفس المبدأ : هذه تتخذ
الاصوات الطبيعية مصدر الاشتقاق وتلك تستند الى الآيات
كمبدأ في وضع الاحكام . وفي كلتا الحالتين استند اجدادنا الى
مبدأ المشابهة بصورة خاصة . ان الآيات تنجم في وجدان من
يعيها بصائر تنجم كنظام خالد للحياة الانسانية بحيث
الاحكام المستكملة شروط ماهيتها السياسية حقائق مستقلة عن
قيود المكان والزمان . وكلمة (فقه) ذاتها تعني معنى تفتح

النفس عن الحقيقة مستضيئة بنور ذاتها . وانما الشريعة هي وضع
الحقيقة في عبارة يسلك عليها الناس في حل المشاكل كقاعدة
سلوكهم على الشارع كطريق معبدة . ومن هنا استعمال العرب
كلمة (سنة) بمعنى القانون نظراً لما تتضمنه هذه الكلمة من معنيين :
معرفة وعمل بها . واذا كان العرف قد اُصطلح على تحديد استعمال
كلمة (سنة) بمعنى سلوك النبي محمد بن عبد الله في تفسير الآيات
وتطبيقها ، فما احد احق ممن توجب شخصيته في تطورها بالرسالة
بأن يستشف من خلال الواقع القائم الحقائق الخالدة .

وهل الاحكام الموضوعة من قبل ائمتنا غير محاولات لحل
معضلات الحياة على ضوء الآيات .

كذلك في شريعتنا ؛ جذورها في السماء وتجلياتها بالمجتمع
مثلها كمثل الامة التي هي احدى ظواهرها : « ان الحرية
والمساواة ، ركني الديمقراطية ، ينتهيان الى الحق وهما منه
يستمد ان قيمتها . واذا تميز الانسان عن الحيوان بالقيمة التي
يرتفع بها عن ان يكون شيئاً من الاشياء فذلك لانه يتعدى ،
بصوته الى التعالي ، سلسلة الحوادث الطبيعية نحو مصدر القيم
الاخلاقية . ان الانسان يستجلي قيم اعماله على ضوء الحق ويجول
بهذا الاستجلاء معنى الحياة . في حين ان الاشياء تبقى بتفاعلها

في الطبيعة ، محصورة خاضعة لمبدأ تعادل القوى . واذا ما قدس
النظام الديموقراطي الشخصية الانسانية فان تقديسه للحق المقيم
في هذه الشخصية الانسانية كتقديس الهيكل الذي يشرف عليه
المعبود من عليائه . وقد تكسفت القوة الحق عن النفس كما تحجب
الغيوم النجوم عن الرؤية . ولكن الحق يبقى متلألئاً في عليائه
تلاؤل النجوم في افلاكها . من رسالة المدنية والثقافة للمؤلف .
اذا فتقصر تشريعنا في الآونة الاخيرة لا يعود لتقصر فقهاً لنا
في المنهج ، وانما حصل ذلك من التباس الشكل عليهم بالمعنى ،
من التباس العبارة بآيتها التباساً ضلوا فيه اكثر فأكثر . ومع
ذلك فأين للغير هذا الانسجام ؟ هاهي تركيا الحديثة وقد فاتها
الحدس في مبدأ الشريعة ، انها قد استعارت عن امم مختلفة
بالعقريّة مصادر قوانينها ، وتدعي بعد ذلك انها تأخذ بمرافق
الحضارة ، فهي كمن يرتدي ثياباً عناصرها متنافرة بالزّي والمصدر
وهاهي فرنسا التي ادعت امس مهمة تهذيبنا تتلمس عبثاً
طريق خلاصها .

وهل تقتصر بالاصالة مفاهيمنا الدينية عن لغتنا وشريعتنا ؟
ان الاسلام هو دين الفطرة وليست ديانات الشعوب السامية التي
استظلت الاقوام بظل اعلامها غير قبس من ديانتنا . هاهو

موسى يقتبس عن شعيب ، الذي هو نبي عربي ، اسم اِهـه
(ياهو) ثم حرفه اليهود الى (يهوه) . وما زال متصوفونا
يستعملون كلمة (ياهو) اي ياذا الذي تعجز عن وصفه الصفات
معنى افصح عنه علي بن ابي طالب اذ عرف الاله بقوله : (عنه
تصدر الصفات لا بالصفات يوصف . ثم استعاره فيلسوف فرنسا
برغسون فزين به مقدمة كتابه (التطور المبدع) .

اوليس اسم (افتاح) او آلهة مصر القديمة تحريفا لاسم
(فتاح) باللغة العربية وهو احد الاسماء الحسنى المرادف للقاضي
والعادل . ولهذا فانه ليس من العبث ان كانت الاسطورة في
مصر الفرعونية تقول بأن جزيرة العرب مهبط الآلهة ، وهذه
الاسطورة انما تدل على اصول الثقافة المصرية : سواء في عهدها
الحاضر او في عهدها القديمة . ترمز مكة ، مهدي رسول الاسلام ،
الى بيت شيد في العالم ، اي ترمز الى الاستقرار والحضارة كما
رمزت جزيرة العرب في نظر المصريين الى مهد الديانة
بصورة عامة .

وهل تختلف الديانة البابلية او الفينيقية ، من حيث العلاقة
بديانتنا ، عن الديانة الاسرائيلية او المصرية ؟ ومن هما الها
حضارة ما بين النهرين (آنو) و(ايا) اذا لم يكن تحريفاً (انا:

الذي يعنى الواحد الاحد) و (ايه الذي يعنى الآية او الاله المتجسد انسانا) بعث في المسيحية : (في البدء كان الكامة ..) ؟
واله فينيقيا (أدونيس الذي هو اله الجمال) اتاهو اسم منحوت من « ادى بمعنى اعطى) و (في بمعنى النسبة فيفيد باصلها اللغوي (الفيض ، الحسن ، البهاء) .

كذلك هي الهة الشعوب السامية : صفات او اسماء حسنى للاله المشتق اسمه في اللغة العربية من (اله ، يلهون) باعتبار ان الله هو الغايه التي تسبو اليها جميع الكائنات .

ان مقومات الامة ليست لوحدها تظهر بمظهر النظام فكل ما يدركه الانسان يحمل طابع العناية واذا بدت الطبيعة كما يبدو التحفة الفنية لدى مثولها في الذهن فان بنية الانسان تضي طابعها على كل ما يمثل فيها واذا كان للحضارة الحديثة من شأن فهو تحرير العقل مما يلتبس به من طابع شخصي .
افلن تقم هذه الحضارة مبدأ اخضاع المحسوس للعقل في دراسة الحوادث ؟ بل ألم تقم المفهوم المعقول للدنيا مقام الصورة الحسية التي اقرها الرأي العام ؟ واذا توج نيوتن نظرية كوبرنيخ باقامته نظام الجاذبية العامة مقام الصورة الحسية للدنيا ذات الآفاق المحددة المستديرة ، فقد ابلغ الحضارة الحديثة

غائتها في هذا الشأن .

وانكن هذه الصورة ، وان اشكت على الانسان سيره
نحو الحقيقة الكونية ، الا انها تلزم عن الطبيعة الانسانية ،
ان الحياة عبقرية ، وتتجلى عبقرية الحياة بوضوح متناسب مع
الحرية ، حرية الافصاح عن الشخصية ، سواء في الفرد ام في
الامة ، فكما ان الجسد يرد عناصر الغذاء الى طبيعة بنيته الخاصة
كذلك الذهن يرى الاشياء تتضاءل في الافق بصورة متناسبة
مع مدى ابتعادها .

وفي الحقيقة ان الصورة المستديرة للدينا ، ككل حركة
منحنية ، توحي بأن الكائنات تخضع لمبدأين متباينين معاً :
مبدأ الانتشار في المكان ومبدأ الصبوة نحو الصميم . فيحصل
من تباينها حركة جانبية (latérale) دائرية . وحيث يكون
هذان المبدأان متعادلين تنعدم الفردية وتصبح العلاقة قائمة على
النسبية ، نسبة الحوادث بعضها الى بعض ، كما هو تعريف
القوانين الطبيعية في الحضارة الحديثة . واذا كانت قوة انجذاب
الاشياء ، بعضها نحو بعض ، تتناسب عكسا مع المسافة في
الطبيعة فذلك لان (الواقع) و (الممكن) يلتبسان حيث
يمس المحسوس الرياضيات .

لكن الحياة تنشىء الاحياء صوراً يتلازم في بنائها الامتداد
والمدة تلازماً تبدو هي فيه كنقطة انطلاق في الطبيعة . ومثل
نقطة الانطلاق هذه من نسيج الحوادث الكونية كمثل بركان
شق الطبقات باندفاعه مشيداً بجمعه علماً شاهقاً على سطح الارض
الا ان ثمة اختلافاً بين البركان والحياة هذه نقطة انطلاق من
خلال العلاقات الطبيعية تتلازم فيها شدة الاضفاء مع فسحة
القاعدة فيمثل العمق العمر ، وكل درجة تكتسبها الحياة في
صعودها تضيفي رواء على مظاهرها فتدو به وحدانية ذات
معالم منفردة . بيد ان علو الجهم في البركان يبقى ، مستقلاً عن
طبيعة المادة التي تكون فيها .

اذن فاذا ظهر الاتجاه المطلق على الاتجاه النسبي في المراحل
التاريخية ذات العقيدة فان الدين مستوحى مما ضاقت عنه الطبيعة
واذا قيل ان الانسان مقياس للاشياء فان القول يعني ان
الحياة عبقرية ذات تصرف في شؤونها وان صاحبها الانسان حكم
في مصير الانسانية .

حتى انه من المستحب ان تقام التربية العامة على مبدأ العناية
اي على مبدأ جعل الامة كمحور يدور العالم حوله كما جعلت
الحياة الفرد محور الظواهر الطبيعية . والامر واجب في تعليم

الناشئة التاريخ والجغرافيا وكل دولة واعية تتمكن من زمام امرها تتبع هذا المنهج ، تجعل في تدريس الجغرافيا وطنها مركزا للدنيا ، تتبسط في شرح امعالمه حتى يصبح وكأنه جسم الامة ، وتتناول أوطان الآخرين بالتفصيل بنسبة ما لهم من تأثير على مصيرها ، وتجعل في تدريس التاريخ شخصيتها القومية مشار الاهتمام بالعالم ، تتناول الدول ووقائعها من زاوية نظرها وتتبسط فيها بنسبة ما لهذه الوقائع من علاقة بمصيرها ، وكذلك تتناول صحافتها الشؤون العامة بمقدار ما لها من علاقة بمصير الامة جاعلة المقالات متناسبة بالصدارة مع وجاهتها بالاهمية . انه لمنهج يقوم عليه الانسجام بين التربية وعمقر الحياة وتبرز به فردية الامة على سطح الحوادث .

تنمو الشخصية باتصال الوجدان مع البيئة الاجتماعية كما ينمو الجسد باقتباسه الغذاء قوتا من الطبيعة . الا ان النمو يحصل في الحالة الاولى من تحويل الرموز الى معاني بما يتطلب هذا التحويل من جهد وعناية ، بينما يتم نمو الجسد انسياقا بمقتضى غرائز وميول معينة . ومع ما في ذلك من تمييز فان كلا المجتمع والطبيعة كأجواء يؤثران على ظهور الميول في ساحة الشعور

وعلى تثبيت الآراء بالرموز ، والاختلاف بينها هو ان المجتمع
تتضمن اعرافه ومؤسساته حدسا يتم استجلاؤها بالخيال . مما يجعل
نمو الشخصية منوطا بصدق تفسير الذهن لها .

تقوم الهيئة الاجتماعية بأمرين نحو الفرد : تكشف اولا
عما انطوت عليه نفسه من امكانيات ، وتوحي اليه ثانيا بضروراتها
الخاصة . فاذا كان منحدرًا من أرومة الجماعة حاملا في بنيته
ذات امته كقوام شخصيته ، هو يصبو اليها وهي تتحقق به
ازدهرت حياته بهذا التجاوب الرحماني بين قطبي شخصيته الصميم
والمظهر (المؤسسات العامة) والا فان تنافرت مقومات
شخصيته بالهجانة او تباين كيانه مع ماهية الامة يبقى متطفلا
على الجماعة ويصبح منها كاطعم من الشجرة يعجل بانهار الصرح
الانساني الذي ينهل منه الثقافة . ان من انقطع عن امته يهبط
عن مستوى انسانيته فيستحيل لهذا الهبوط الى مسخ ذي
تكوين مصطنع .

ولما كان النمو الشخصية وازدهارها يقومان على انسجام
الميول المنطوية عليها بنية الافراد مع الاوضاع العامة فقد
اصبحت الامة بمثابة بالوظيفة للأسرة في مد اعضائها بأسباب
الثقافة ، فحيث تشفى العبارة عن المعنى يسهل التجاوب الرحماني

بين ذوي القربى فينبعث من هذا التجاوب فيض من المشاعر
فترتقي النفوس على الفيض الى اصول المكارم الاخلاقية .
وفي جو كهذا تثبت دعائم الاخوة . واما الدخيل المتباينة
منظومة حياة مع قوام المجتمع فيبقى فيه الصميم منحببا عن
دواعي الثقافة فتضمر عندئذ جذور العواطف الكريمة . وان
يبدا في سلوكه من المرونة حتى يوهم الاخرين بالذكاء والالمية
فما ذلت الا مظهر انعتاق الميول الدنيئة فيه من ولاية الميول
الرفيعة . وتأيدا لوجهة النظر هذه نقدم بعض الامثلة من
التاريخ المعاصر .

كانت كل من فرنسا وألمانيا يخضع لنظام الاقطاع . وكان
كل منهما ينقسم بحكم هذا النظام الى جمهور وأمرأ اقطاعيين .
غير ان موقف الامراء في كل منهما لم يكن واحدا ازاء محنة
الوطن ، فلما احتلت جيوش فرنسا بقيادة نابوليون بوناپرت ،
برلين عاصمة بروسيا ، عقد امراء المانيا مؤتمرا لمعالجة الحظر .
ولما سأل أحد النبلاء : كيف كان لقردة اوروبا ، وهذا هو
لقب الفرنسيين عند الالمان اذ ذاك ، ان احتلوا جرمانيا التي
تمد ملوك القارة الاوروبية وافرادها بالحرس ؟ اجاب عضو
آخر من المؤتمر قائلا : « اننا نحن معشر النبلاء قد ارهقنا

الجمهور بقيود الاقطاع بحيث أصبحت حالة الفلاحين لا تسمع لهم
بالاشتراك مع السادة في حماية المملكة . وما ان قيل هذا القول
حتى قرر الامراء التخلي عن ثلث أملاكهم فضلا عن امتيازات
الاقطاع للفلاحين بلا مقابل . وذلك بغية ايصال هؤلاء الى
المستوى الذي يؤهلهم للقيام بواجباتهم في الدفاع عن كرامة الامة .
لكن امراء فرنسا وقفوا موقفاً اخر من سلامة الوطن .
فلما عقدت الجمعية العمومية بجلستها في ٤ آب سنة ١٩٩ اثناء الثورة
الكبرى ، وكان خطر الاحتلال الأجنبي قد دام بلادهم من كل
الجهات ، ناقش ممثلو الطبقات أمر رداً الخطر حينذاك . وفي
هذا الجو الملهب بالحماس تمكنت بعض النفوس الكريمة من اذكاء
الارحية والنخوة في الاخرين فحملوا رجال الاقطاع على اقرار
بيع امتيازاتهم للدولة على هذا الاقرار يشير حماس الطبقة الكادحة
في الدفاع عن الجمهوريه . ولكن ، اذا أذعن النبلاء لهذا النداء
في حالة من الوجد ، فهم سرعان ما أظهروا الندم على مقرراتهم
حتى أنهم اثروا الالتحاق بجيوش الأعداء على التعاون مع الجمهور
على دفع العدوان .

و كيف كان هذا التباين بالموقف ازاء محنة الوطن بين امراء
كل من المانيا وفرنسا ؟ أليس الامراء في كلتا الدولتين من نفس

العرق أي من الجرمن ؟

كان الامراء في ألمانيا قد ظلوا في بيئتهم الطبيعية بين اخوانهم حيث كانت النفوس تتجاوب رحمانيا فتفتح فيها الحياة عن مشاعر المودة بين ذوي القربى فيرتقي الجميع على موجهها نحو المثل الاعلى بينما كان الامراء في فرنسا يترعرون في بيئة اجنبية سلبوا سكانها السطان ومرافق الحياة واخذوا يتطفلون على عشراتهم حتى انحسرت فيهم الميول الكريمة .

ومن قبل ، حين حاولت جان دارك النهوض بفرنسا لتشق لها الطريق نحو الحياة الجديدة ، تألب الملك والامراء مع انكلترا التي كانت تحتل فرنسا اذذاك على الامة وعلى قديستها أفلم يقف هؤلاء الدخلاء من الالمان ضد أحفاد الغالين سكان البلاد ؟ رغم أنهم قد مكثوا بين ظهر انهم عصوراً مديدة . وفي روسيا ، ألم يقف رجال الاقطاع موقفاً معاديا من أماني الجمهور الذي تطفلوا عليه كدخلاء ؟ حتى لقوا مصيرهم المحتوم . في حين كان أمراء اليابانيين يقفون من أبناء جلدتهم ، الطبقة الكادحة ، الموقف الذي تقتضيه مصلحة الوطن .

ونحن أيضاً قد عانينا ونعاني اليوم تجربة مماثلة . كان وجهاء البلاد يزحفون الى دوائر المستشارين في عهد الانتداب . كانوا

يتسابقون في اعلان الولاء للأجنبي المحتل ويشتركون معه في
المكيدة على الجمهور الذي يستمدون منه قوت الحياة . ومع
ذلك فلم تحف ندالة اعوان الانتداب على المعتدي الغاصب .
فقد اتخذ منهم أقنعة سياسته في ارهاق البلاد واذلالها ، يدراهم
عنه المساولية . وبعد ان استنفدت فرنسا ثروة البلاد ، حتى
جعلت المتزعمين مطية لكل مذلة ، اخذت تمدهم ببعض مرافق
الحياة بحيث أصبح مثاهم كمثل الشجرة التي اجثت جذورها
ولم يبق لها من وسيلة ، للمحافظة على بعض الرمق ، الا بالرطوبة
التي تتلقاها عن طريق الورق . بل ان مثلهم كمثل كلب الصيد
الذي يلحس الدم المتفجر من قوائمه وهما منه انه يقات من
الفريسة .

كانت الاسر الدخلية تتظاهر اذ ذاك بالانقسام في الرأي :
يتحدى شعور الجمهور بموالاته للأجنبي مستنداً في تحديه على حرايه ،
وفريق آخر يتقنع بالوطنية فيشير ضجة مصطنعة يلهمي بها الجمهور
عن رؤية مشاكه الكبرى . ان المعارضة لم تكن الا لوقاية
سياسة الانتداب فهي منها كصامة الامن من القطار : ضجة
الغرض منها ليس انفجار المرجل بل تخفيف الضغط عنه .
وكيف كان احفاد العثمانيين يسلكون هذا المسلك من

الانتداب في حين كان أبناء عمومهم الذي هم في الأناضول يبذلون
دماءهم في سبيل الدفاع عن وطنهم أثناء حرب الاستقلال ضد
اليونان . ان الاسباب متماثلة هنا وهناك . وقد عبر المتنبي
شاعر العرب ، عن هذه الفكرة حين قال

« انما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

تتعين مرتبة الامة في سلم الحضارة بمدى تنوع نقاط ارتباطها
بالارض ، روابط تخضع بها الحوادث الطبيعية لمشيئة أبنائها ،
أي بمدى تقدم العلم والصناعة . وتتعين مرتبتها أيضاً بمدى التعاون
بين الاخوان على سبر أغوار الحياة الانسانية وعلى دعم الحياة
في نحو المثل الاعلى . وهي بالاحرى تتعين بمدى اتصالها
مع المرحلة التايخية المعاصرة اتصالاً تستقطب به نفوس ابنائها
تيارات الفكر فتحولها الى حقائق منبعثة عن الوجدان . وكما
يقاس تقدم الامة في مضمار المدنية بمقياس الالة ، تنوعها وضخامتها ،
يقاس تقدمها في الثقافة ايضاً بنمو ابنائها في اتجاهي الفسحة والعمق
المتناسين معاً . واذا كانت المدنية معيار صدق الثقافة في الحضارة
الأصيلة فان مرتبة المجتمع تتعين بنظام قيمة وبما يهدي اليه هذا
النظام من غايات نبيلة . مثل الجماعات كمثل الانواع الحيوانية :

يتشابه بعضها مع بعض بنسبة اقترابها من قاعدة وجودها الطبيعية
وتتميز عن بعضها بغاياتها التي تظهر في نظام قيمها كنبوة ايقاع .
« فاذا كانت الامم تتشابه بالقاعدة التي هي الحياة الاقتصادية ،

اي الحياة التي يتم فيها التعادل المادي بين ما يستهلك الجسد والغذاء
واذا كانت تلتقي بصورتها في المثل الاعلى فانها تختلف بكيانها
القائم بين حدي تطورها والذي يظهر بصورة خاصة في فنونها
وآدابها وعرفها اللخ . . . مظهر ايترب عليه نوع التربية ودرجاتها
في سلم الثقافة الانسانية » . من كتاب للمؤلف

في غاية مرتقاها ، لمرتقى الذي تبقى الحياة في كل من مفترقي
سبله بين الهبوط والصعود ، بين سهولة الانحدار وصعوبة استئناف
الارتقاء نحو المثل الاعلى مهتدية بالخير سالكة مشيئة الحق .
لا الحرية بالمعنى المألوف في الثقافة الحديثة . ذلك المعنى الذي حملت
طابعة الشعوب في نضالها ضد الاستبداد والاستعباد .

• • •
ماالعروبة ومن هم العرب :

كلمتا عروبة وعرب ، هما مصدران لفعل (عرب) فأول
يفيد الابانة والثاني يعين : من افصح وابان . والمعنيان يظهران
في العبارات التالية ؛ اعرب عنه لسانه : ابان وافصح ؛ والعرب

رباء: الصرحاء الخالص ، اعربهم حسباً : ايئهم واوضحهم ،
اما كلمة (عرب) فهي اسم مصدر اصطبغ مدلولها بصيغة الجمع
عندما تشخص .

ولما كانت كلمة (تعرب) بعني تخلق بخلق العرب ، وكانت
كلمة (استعرب) تعني صار دخيلاً بين العرب ، فقد أصبح
تقسيم العرب الى : عاربة ومستعربة ومستعجمة قائماً على مبدأ
البيان المبدأ الذي تضمنه فعل عرب مصدر الاشتقاق بالصيغة
المعبرة عن حالات العزيزة . اذا فمن كان يعرب على السليقة فهو
من العاربة ومن كان يعرب تكلفاً وتصنعاً فهو من المستعربة
اما العرب المستعجمة فهم الشعوب السامية التي انحرفت اداة
بيانها عن العربية السليمة ، أي عن الفصحى .

ونحن نستعمل هنا كلمة (سامي) وفق المعنى الاشتقائي
للكلمة وهو سمو ، المعنى الذي نلتقي به مع الاسطورة القائدة
بأننا اولاد السماء . والسماء هنا تعني الوجدان والولادة تعني
ما يبدر في النفس من الاتصال بين الوجدان والرحمن . وليس
للسمو أو الهبوط من معنى الا الاقبال أو الاعراض عن مصدر
الحياة ومدى ذلك الاقبال أو الاعراض ففي الاقبال ازدهار وفي
الاعراض قحط وجفاف .

وإذا جاز لنا تصنيف الأمم بحسب نظام قيمها وكان طابع
النظام يتراوح بين الرحمة والعدالة والرسالة نقول ان الأمة التي
تقيم كيانها على مبدأ الرحمة يقف تطورها عند حدود الجماعة
المغلقة الابتدائية اذ أنها تلتزم على نفسها وتقتصر العواطف فيها
على حدود الغريزة . وان الأمة التي تقيم كيانها على مبدأ العدالة
تأخذ بأبنائها نحو انسانية متكاملة (كامل من كم الزهر ، وحرف
ل هو عبارة الحركة والانطلاق) . وان الأمة التي ينبغ فيها
بين الفنية والفنية احد الرسل تقشع ما التبس بالعدالة من أمور
عرضية شكائية . هذا فضلا عن أنها تقوم بتنظيم العلاقات بين
الأمم على ضوء الانسانية المستجدة في رسالة نبينا بحيث يصبح
العالم كما تصبح الارض الطامسة معالمها اثر اندفاع بركاني تحول
به السطح الساجي الى وجه ذي معالم .

ومع ذلك فان الحياة تبقى ذات هدف في الرحمة والعدالة
والرسالة . وليس بغير الحرية بتشبة الانسان بالاله . ان كل
غرض يزيد من بعد الشقة بين الاله وبين كلمته التي برأها على
صورته ، خلا الحرية : حرية التملك من الحياة والتصرف بها .
واليك اجمل ما قيل عن صبوة العرب في الجاهلية الى هذه الامنية :
« اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وان هو لم يحمل علم النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل

. . .

لنا جبل يحمله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسجابه
الى النجم فرع لا ينال طويل

. . .

وانا لقوم لانوى القتل سببة
اذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حترف أنفه
ولا تطل يوما حيث كان قتيل «

. . .

فالامة اذن تتناسب رفعتها مع ما يمنح نظام قيمها من حرية لابنائها
في تنظيم شؤون الحياة حسب عبقرياتهم الخاصة. الا ان الحرية الكليل
توجهت به الحياة. اشتق الذهن العربي كلمتي : خير وشر : الاولى

من الفيض (خارخيوا من خريير الماء) ، والثانية من شر (شر) الشوب وضعه في الشمس ليحجف (فقد ادرك بالحدس وجهة النظر المتقدمة . وانما الصراط المستقيم هو السبيل بين النفس وباريها ، بل اقصر السبل التي يتم بها الاتصال . واما الشيطان فهو رمز الشطط ، رمز الانحراف الحاصل من الاعراض وما يحصل من ذلك من الجفاف .

فاذا كانت الاساطير توجز حدس الجمهور في الحقائق ، اذا ، فان العرب ومن تفرع عنهم من شعوب سامية يرون في الثقافة العامل الاول في تكوين الانسان . اي انهم يرون في ما انبثق عن النفس من احكام الحقيقة الانسانية هو العامل الاساسي في تعيين مجرى الحوادث التاريخية . وهم يختلفون بذلك عن الشعوب الهندية - الاوروبية التي تفصح اساطيرها عن وجهتها في الحياة ، الوجهة التي تقوم على الزعم بأن الانسان ابن الارض ، اي اه الروابط التي تحصل من ضرورات البيئة لها الاهمية الاولى في تكوين الانسان والانسانية . وتاريخ كل من الساميين والاريين يشهد على ان النزعتين المتباينتين (والتباين هنا بمعنى ان كل منهما يبين مكنونات الآخر) : نزعة الساميين الى التآحد بوحدانية الثقافة ، ونزعة الاريين الى التشتت بحسب مقضيات الطبيعة ،

كانت كل منها قد عينت احدى وجهتين تطور البشر . افلم
يشرف الاسلام من على كرسالة، على الامم وتوجيهها نحو وحدة
الثقافة؟! « الايات : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم
وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض » ، « ان الدين
عند الله الاسلام وما اختلف الذين اتوا الكتاب الا من بعد
ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ، « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة
سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ
بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا انشهد باننا مسلمون » ،
« ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما
كان من المشركين » ، « كان الناس امة واحدة فبعث الله
النبیین مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم
بين الناس في ما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذي اتوه
من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم .

اولم تقم ايضاً محاولات من قبل بعض الشعوب الهندية
الاوروبية لتأسيس امبراطوريات كالتي اسسها الاسكندر
المكدوني وروما في العهود القديمة والتين اسسها الانكولو
ساكسون والروس الشيوعيون في المرحلة التاريخية الراهنة؟
محاولات لجمع امم مختلفة في نظام موحد ولتوطيد السلام بين

هذه الامم . ولكن انى هذه الامبراطوريات روعة المجاهدين
العرب المسلمين في صيوتهم الى الاستشهاد واي كلمة تبليغ بالتعبير
عن هذه الروعة مبلغ كلمة « شهيد » بمعنى مشاهدة عالم الغيب
لدى اقتحام الموت في سبيل الحق !?

يظهر التباين بالتكوين بيننا وبين الشعوب الهندية الاوروبية
في اللغة بصورة خاصة . ففي لغات هذه الشعوب تخضع الكلمة
لقوانين الصوت الميكانيكية خضوعاً تنطلق به متباعدة في
الاختلاف عن ارومتها بحيث يصعب على الاحفاد الاستفادة من
تراث الاجداد ، في حين تبقى الكلمة العربية تحت رقابة المعنى
خاضعة لمبدأ الاصاله . وايضاحاً لوجهة النظر هذه نأخذ ، على
سبيل المثال ، انشودة « رولان Rolland » من الفرنسية
وقصيدة « السمؤال الغساني » من العربية . فقد وضعت الاولى
في عهد « شرلمان » المعاصر لهارون الرشيد وقد سبق وضع
الثانية ظهور الاسلام . ومع هذا الفارق بالزمن فان قصيدة
السمؤال اوضح من جميع القصائد العربية الموضوعه في عصرنا
بينما فهم انشودة « رولان » من الصعوبة بحيث انها تحتاج للترجمة
من الافرنسية القديمة الى الافرنسية الحديثة .

اما كيف حدث ذلك الاختلاف ، فان اللغة الفرنسية

تاريخية التكوين من حصلت اللاتينية . اي ان سكان فرنسا ،
وهم من « الغالين Gaulois قد تعلموا لغة الرومان المحتملين
لبلائهم ومن ثم اخذوا يهملون لغة الاجداد لتقوم مقامها لغة
الحكام . وعلى هذا فان الافرنسية قد تقدمت عليها في التاريخ
اللغة اللاتينية . وهذه بدورها نشأت تاريخية لغة من اخرى ابعد
قدما في الزمن الا وهي الهندية - الاوروبية . وبما عجل
بتطور اللغة الرومانية من منظومة صوتية الى اخرى احتلال
قبائل « فرانك » الالمانية لبلاد « الغول » التي هي فرنسا . ومن
هنا اتى اسم فرنسا .

اما كيف حصل هذا التحول فذلك ان الاطفال في كل
جيل من اجيال الامة يتلقفون الكلمات من ذويهم وهم ، لدى
اقتباسهم اياها ، يجر فونها بعض التحريف . حتى اذا مامضى على
التطور عبر الاجيال احقاب طويلة استحال على الاحفاد تمييز
المعالم الاولية للكلمات .

غير ان السكامة العربية لم تزل على النشأة الاولى : جذورها
اصوات طبيعية ومسالك نحوها متممة بالتقدم نحو اداة بيانية
متكاملة . اما ماوقى اللسان العربي من عاديات الزمان فأبقاه
كمثال حي لنهج الحياة في ايجاد اللسان فهو ان اللفظة قد ظلت

فيه تحت رقابة المعنى . وقد ظل الحدس المنطوية عليه ارومة
الكلمات مشرفا على عملية استحداث المشتقات بحيث كان التلازم
على اتمه بين المعنى والخيال المرئي من جهة الصوت من
جهة ثانية .

وقد يظهر في بعض الاحيان تأثير الاقتران او المشابهة او
التضاد ، اي احد انماط تداعي الصور في سير عملية الاشتقاق .
ولكن المعنى يتغلب في معظم الاحيان على ميل الصورة الى
التآلف وفق المبادئ المتقدمة بالذكر فيلقي طابعه على مجموعة
الكلمات العربية واليك بعض الامثلة نكشف بها عن نمطي النمو
في اللغة العربية : نمط استجلاء الحدس بتجاوب وجهتيه ، المعنى
والصورة ، عن مثال استجلاء الالهام بألفاظ القصيدة ، النمط
الذي تعبر عنه كل من وجهاته احدي كلمة الاسرة المنطوية تحت
الأرومة ، ونمط الانتقال من صورة الى صورة تبعا لمبادئ
تداعي الافكار المألوفة . ولنبدأ الان بالنمط الاخير .

الأجيج : الصوت الحاصل من اختلاف الكلام وحفيف
المشي ... ماء اجاج : ماء مالج حر . اجت النار : اضطربت
واشدهيها . فكيف اجتمعت في اسرة واحدة الكلمات مشتقات
متباعدة بالمعنى حتى هذا الحد ؟ ان الكلمة البدائية التي هي مصدر

الاشتقاق هي صوت الاجيج الصادر عن ذكر الحمام حينما يحوم
حول انثاه . وفي هذه الحالة ينفش الذكر ريشه وتشتد حماوته .
فمن نفش الريش انتقل الذهن العربي الى موج البحر بالمشابهة
من حيث الشكل ، وعن موج البحر انتقل بالاقتران الى ماء
البحر المالح المر . هذا من جهة ومن جهة ثانية انتقل بالحماوة ،
بالمشابهة ، الى النار التي تضطرم وتشتد حرارتها . اليس اسم حمام
نفسه مشتقا من خاصة الحرارة ؟

وهاك مثالا آخر عن هذا النمط ؛ قر اليوم : برد ،
وقرت الحية : صوتت وقر في المكان : ثبت واستقر . فكيف
اجتمعت هذه الكلمات المتباينة في اسرة واحدة ذلك ان ثمة
دويبة مستطيلة تعيش في الماء وتحدث صوت « قرقر » استعار
منها الذهن العربي ارومة تلك الكلمات . ولما كانت هذه الدويبة
تعيش في قاع الماء في الشتاء فقد اخذ الخيال العربي يتفرع بالاتجاه
نحو القرارة والبرودة والكلام .

اما اتجاه المصمم الذي تبقى فيه المشتقات متضامنة بالمعنى
كتضامن انغام الانشودة بوحدة الالهام فيظهر في المثال الآتي
« ان كلمة ذكاء مشتقة من ذك وهي صورة صوتية مدادية مع
اخواتها حك ، ذك ، حك الخ ... على اتجاه يتضمن معنى

الاحتكاك والدلك بحسب بيان الحرف (ك) ، والكلمات
المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي: ذكت النار: اشتد
لهيبها ، اذكى النار : اوقدها ، الذكوة : ما يلقي على النار فتزكو
به ، الذكاء : الجمرة المشتعلة ، ذكاء : اسم علم للشمس... الذكاء:
سرعة الفهم وحدته ... فكان الذهن العربي قد ادرك ، حدسا ،
الشبه بين تحولات الوجدان من الابهام قبيل اليقظة الى الوضوح
فالتأجج عند استكمال شروط هذه اليقظة وبين الشمس الساطع
نورها والحاصلة من تكاثف السديم وتبلوره . فعبر عن الذكاء
(النور المنبثق عن استجمام النفس) بكامة ذكاء ، صورته
المحسوسة .

وان كلمتي : ايهام وغموص ، بالتباين مع الذكاء يزيدان
حدته وضوحا ويتمان فهمه :

فكامة ايهام مشتقة من (بهم) وهذه حاصلة من (بها)
بإبدال الألف ميما ، وهذا الحرف المستبدل ، بحسب مخرجه ،
يفيد المحدودية والاعلاق فيحول هذه الكامة من ايهام الايجابية
(بهي البيت : وسعه ، ايهي الاناء : فرغه ، ايهاء : الحسن
باتجاه التفتح والازدهار) الى (بهم) السلبية (ايهم الباب :
اغلقه ، المههم : الحائط ليس فيه باب ، البهيم : الاسود او ماهو

على لون واحد ، وليل بهيم : لانور فيه ، والبهيم صغار الحيوانات
والبهيمة ، الدابة ، والأبهم : الاصمت والاعجم ، بهم :
استغلق) .

وكذلك كلمة غموض ، فانها مشتقة من (غمض) وهذه
حاصلة من (غم) وغم صورة بيانية للتعبير عن المعنى الذي
تنطوي عليه اكمل تعبير : غمه : غطاه ، : حزنه اغمى عليه :
خفي واستعجم ، والغمة : الظلمة ، والغم الحزن .

ومن مشتقات (غمض) : الغامض : المبهم والمغلق
والخامل والذليل ، والغموض : العيب ، وغوامض الابل :
صغارها .

يؤخذ من هذه الصور الحسية والمفاهيم العقلية المتقدمة ان
الحالة النفسانية التي تعرض عن المعنى تلتج على نفسها او تغمض
وتفقد نورها وتلونها (بهاءها) فتعسي في ظلمة وحزن ، من
كتاب (العبقريّة العربية في لسانها لؤلؤف .

الا ان رقابة المعنى للفظه وجعله اياها طوع مشيئته يستلزمان
ابدا وعيا على مستوى عال ، وهل يبقى الوعي على هذا المستوى
ولا سيما اذا ابتعدت الصورة البيانية عن الفطرة الاصيله بالهجانة
ليست اللهجة العامية نتيجة ارتخاء يعتري البيئة ، ذهنية كانت

ام اجتماعية ؟ اما كيف انخرقت لغتنا من الفصحى الى العامية التي نستعملها الان ، فذلك محصلة اسباب عديدة : منها وأهمها ان الفئة المصطفاة ، كمثلة للثقافة العربية ، قد استشهدت اثناء الفتوحات الممتدة من سد الصين الى بحر الظلمات ، او اثناء الاضطرابات الداخلية من اجل تصحيح الخطأ في الاجتهاد ، اجتهاد الحكام ، من قبل الجمهور الثائر او وقع الثورة من قبلهم حتى اصبح مثل العرب ، اصحاب الثقافة ، كمثل خلية نحل استبدلت بعاملاتها متطفلات على العسل ، ومنها ايضا اختلاط العرب بالاعاجم عن طريق الزواج وعن طريق الهجرة المتبادلة بينهم على مقياس واسع .

لكن الميل يضمور في السليم ضمور المرض وقت الصحة ، يذر قرنه عند ما تعجز الحياة عن السيطرة على ظروفها . مثل الفصحى من العامية كمثل الكياسة من الفلاية . فالاولى تتطلب جهدا وعناية بحسب ما يقتضيه البقاء على الوضع الامثل ، اما الثانية فليست الا منحدرا تؤول اليه مقومات الشخصية لدى انهيارها في حالة العجز عن لم شعشها وتوجيهها نحو الكسب الذي تستلزمه الامنية : وكلمة عامي واعمى تلتقيان في حدس مشترك هو العجز عن تمييز التلونات .

وهل كان ظهور العافية وقفا على عهد الاسلام. او لم تكن
اللغات السامية لهجات عربية استغرقت في عاميتها كل الاستغراق
حتى تثبت الانحراف بالكتابة اما ما في هذه اللهجات من نظام
على الرغم من ان كيانها يقوم على الميل ، فذلك لان كل ظاهرة
من ظواهر الحياة تنطوي على النظام سليمة كانت ام منحرفة ،
فتمثل الرمز في الذهن تحول الى صورة ، والصورة تبدو
كنظام من وجهة نظر معينة شأن اللغة بذلك كشأن جميع
مظاهر الحياة الاخرى .

حتى لقد يرجع التشاؤم عند الشعوب السامية الى الحدس
في تخلف العامية عن الفصحى ، الواقع عن المثل الاعلى ،
حدس يتراءى فيه الماضي كعهد ذهبي من خلال الحاضر المزور
ولقد يرجع الى هذا الحدس التباين الشديد بين قطبي الحياة
الطبيعية والملا الأعلى ، تباين يتأرجح الذهن بين حديثه الرحمن
الى الشيطان .

هكذا استوحى كل من الساميين والآريين نظرتهم في
الكائنات من تكوينهم الخاص .
ولما كانت الكلمات العربية قد بدأت مع الانسانية ، أي
مع ايجاد الحياة للسان كاداة للبيان . وكانت وجهتا الوجدان

المحسوس والمعقول، الطبيعة والملا، تنموان بتجاوبها منسجمين
في لساننا، فقد أصبحت جميع مؤسساتنا كالتشريع والدين
والفنون الخ... تقوم على استجلاء الحدس المنطوية عليها الكلمات
بحيث أصبح كياننا الانساني متلازم المظهر. جذوره في الملا
الاعلى وتجلياته متتامة في الطبيعة.

وهل وقف الامر عند حد الكيان الاجتماعي الانساني؟
اليست كل من كلماتنا منظومة صوتية الهامها حدس تجلت به
تجربة الحياة المثلى، التجربة البي رمزت الى حقيقتها اسطورة
آدم. حتى اذا اولى العرب عنايتهم للاصطفاء بالنسب فذلك لئلا
تطفو نزوات الحياة على النفس فتحجبها بهذا الطغيان عن رؤية
تلك التجربة مصدر المعرفة والعمل.

تجنب العرب الهجانة في جميع مظاهر الحياة وفي اصطفاء
النسب بصورة خاصة. واذا قالوا: « لا يعلو المرأة من هو
دونها » متخذين بهذا القول الاصابة اساساً في الكفاءة، فقد دلوا
على ان الغاية من الزواج هي استئناف الاصطفاء من اجل
الوصول الى جيل اقرب فأقرب من الكمال. واذا تكنوا باحد
الاجداد دون الاقربين فما كان ذلك منهم الا اعتداداً بمن بلغت
فيه الصفات الاصلية الاوج في الاصطفاء « انا النبي، لا كذب،

انا بن عبد المطلب « الرسول محمد .
وعلى هذا فان كانت ثمة صلة اصيلة بين المعنى والصورة وكان
نهج العرب في الزواج يقوم على اصطفاء الخصال الكريمة ،
اي على استجلائها كحدس شيدت عليها المؤسسات العامة ، فان
العهد الجاهلي يلتقي مع الاسلام في الآية التالية :
« امة وسط » بمعنى الاعتدال او القرب من الكمال او ينبوع
الحياة الذي هو المثل الاعلى المتجلى حيننا بعد حين من عهد آدم
الى عهد محمد بالنبوة والرسالة .

تلك هي العروبة ، كتجربة الحياة المثلى التي تتجلى منذ
ظهور آدم الى الان كمنظومة معان قام عليها كيان العرب .
انها لنظرة فنية اخلاقية في الكون .
اما العربي كمثل مجتذيه ابناء الامة ويدأبون على تحقيقه
في بنيتهم كسجية ، فقد كان موضوع شعرنا في العهد الجاهلي
بصورة خاصة . واليك بعضاً من ملامح هذا المثال الذي طالما
صبا اليه اجدادنا :

« اذا القوم قالوا من فتى نخت انني

عنبت فلم اكسل ولم اتبسد »

« لو كان في الالف منا واحد فدعوا

من فارس ؟ خالهم اياه يعنسونفا »

« ان تبتدر غاية يوماً لمكرمة
تلق السوابق منا والمصلينا »
• • •
« تسيل على حد الظبابة نفوسنا
وليست على غير الظبابة تسيل »
« ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا
ولكن على اقدمنا تقطر الدما »
« محرمة اكفال خيلي على القنا
ودامية لباتها ونحوها »
« حرام على ارماحنا طعن مدبر
وتدق منها في الصدور صدورها »
• • •
« ولايجزون من حسن بسوء
ولايجزون من غلط بلين »
« وان توددتهم لانوا وان شهموا
كشفت ازمار شر غير اشرار »
« لاينطقون عن الفحشاء ان نطقوا
ولايمارون ان ماروا باكسار »

« خطيأ حين يقول قائلهم
بيض الوجوه مصافع لسن
« لا يفتنون لعيب جارهم
وهم لحفظ جواره فطن
« لا ينكتون الأرض عند سؤالهم،
لتطلب العلات ، بالعيدان
« بل يسفرون وجوههم فتوى لهم
عند السؤال كأحسن الألوان
« انا قوم نفي بما وعدنا ، ولا ننقض ما اكفنا .
« اذا سيد منا خلا قام سيد
قوول لما قال الكرام فعول
»

« عليهم وقار الحلم حتى كأنما
وليدهم من اجل هيبتة كهل
« ان استجهلوا لم يغرب الحلم عنهم
وان آثروا ان يجهلوا عظم الجهل
»

« لقد كتب اختار القرى طاوي الحشا
مخافة من ان قد يقال لئيم
»

« واني لاشتهي بي وبينها
وبين فمي داهي الظلام بهيم »

. . .

« اماري ان المال غادوورائح
ويبقى من المال الاحاديث والذكر »
« فنفسك اكرمها فانك ان تهن
عليك فلن تلقى مدى الدهر مكرما »

. . .

« صفونا فلم نكدر واخلص سرنا
انا اطايت حملنا وفحول »
« علونا الى خير الظهور وحطنا
لوقت الى خير البطون نزول »
« فنحن كماء المزن ما في نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخييل »
ولما كانت الحصاص تظهر بوضوح اكثر في مقابلة الاضداد
نقدم فيما يلي ما كان يتجنبه العرب :
« لحا الله صعلوكا مناه همه
من العيش ان يلقي لبوسا ومنعما »

« ينام الضحى حتى اذا نومه استوى

تنبه مثل موج الفؤاد مورما »

خرز عيونهم الى اعدائهم

يمشون مشي الاسد تحت الواابل »

« ليسوا بأنسكاس ولا ميل اذا

ما الحرب شبت اشعلواها بالشاعل »

اما العرب كنظام حياة يتميزون به عن غنهم من الاقوام
فان مجاهم الحيوي يمتد من جبال طوروس الى جبال البيرينيه .
واذا كانت موجتهم قد تحطت في حقبات التاريخ هذه الاسواء
الى القسطنطينية وباريس ، واذا كانت انكفأت عنها الى المغرب
وحلب ، فان تاريخ الامم يقوم على سنة التارجح بين السبات
واليقظة ، مثله كمثل الحياة ذاتها .

افلا يدل انصار الشعوب السامية في بوتقة العروبة انصاراً
كليا على اشتراك هذه الشعوب مع العرب في ارومة واحدة .
وتعبيراً عن هذه الحقيقة نستشهد بما قال احد شعراء اسبانيا
المعاصرين : « انا ورثنا عن اجدادنا العرب انبل مالدينا
من تراث .. »

مشاكلنا القومية

ان مشاكلنا القومية الكبرى ترجع مبدئيا الى عاملين اساسيين : موقع بلادنا في الدنيا ، وما حملنا التاريخ من اعباء . بل ترجع الى ماتج من هذا وذاك من فتور في الهمة واختلاف في الموقف ازاء المصائب العامة .

اما المشاكل التي ترجع الى موقع بلادنا فهي كوننا بين آسيا واوربا ، بين قارة نفوسها مليار نسمة واخرى ينوف عدد سكانها على خمسمائة مليون نسمة . لاسيما ان الاولى تمد العالم بالمواد الاولية والثانية توزع منتوجها الصناعي على جميع الامم ، بحيث يشتد بينها التبادل التجاري والعلاقات الاخرى . وهذا التبادل ليس له من وسائل غير طرق بلادنا . وفضلا عن ذلك فان بلادنا تشرف من الشرق على المحيط الهندي ومن الغرب على المحيط الاطلسي وتحيط بالبحر المتوسط من كيليكميا الى

جبل طارق . ونحن نقف بحكم موقع بلادنا وجها لوجه فمع شعوب اميركا من جهة وشعوب آسية من جهة ثانية . ونقف بحكم هذا الموقع موقف المتأخم لكل من ايران وتر كيا ودول البحر المتوسط الاخرى . وبناء على موقعنا هذا ، وبناء على امتداد وطننا من خليج البصرة الى جبل طارق ومن جبال طوروس الى الحبيشة ، تتشعب العلاقة بيننا وبين الامم المجاورة لنا وغير المجاورة تشعبا تمس به الامم بنسبة تقدمها في مضمار الحضارة . واذا ما اضيف الى ذلك تشعب مصالح السكسون في الدنيا وما كان لهذا الشعب من علاقات مع بلادنا ادر كنا حراجة مر كزنا .

فمن متأخمتنا لايران نتجت بينها وبيننا مشكلة شط العرب وعربستان ، تلك المشكلة التي فرض الحلفاء على العراق حلها لمصلحة خصومنا وكان هذا الحل قد فرض دون ان تشير الحكومة العراقية اية ضجة . وذلك لئلا يتنبه العرب لما يحيط بهم من اخطار جسيمة .

ومن متأخمتنا وتر كيا نتجت بينها وبيننا مشكلة كيليكيا ولواء اسكندرون . والمشككتان قد حلتما على حسابنا من قبل الحلفاء ومنهم فرنسا بصورة خاصة . ان اقتطاع كيليكيا مننا

حرم بلادنا من نخومها الطبيعية . وان غضب لواء الاسكندرون
منا جعل في وطننا ثغرة تهددنا منها غزوات الدول من الشمال .
اما كيف تأمرت فرنسا علينا ، وهي الدولة المنتدبة
على سوريا ، فتخلت لتوكيا عن كيليكيا ثم عن لواء
اسكندرون ، تترك المنطقتين العظيمتين بخصبها ووقعها . انا
نجد مفتاح ذلك السر في قول ماثور ادلي به للصحفيين الجنرال
ويغاند ، احد المفوضين السامين السابقين على سوريا ولبنان في
عهد الانتداب مفصحا بهذا القول عن اغراض السياسة الفرنسية
في هذا الشأن وهو : « ان وجود تركيا قوية على حدود بلاد
العرب يخفف من حماسهم ويعرقل تطورهم » ولما كان ويغاند
يدلي بهذا القول كجواب القاه عليه الصحفيون : « كيف
تخاذلت فرنسا القوية امام تركيا » وكانت لم تختبر بعد انذارها
امام الزحف الالماني بل كانت تحمل هالة مجد انتصارها على
الالمان سنة ١٩١٨ . لما كان يدلي به كان احد المدرسين
الفرنسيين باللواء يفسر في صف لتلاميذ العرب مغزى اتفاقية
خنيف بين فرنسا وتركيا بانها قبر دفن فيه حلم الامبراطورية
العربية .

ولما تظاهرت فرنسا بالاختلاف بينها وبين الاتراك على

كيليكيا اثناء حرب مصطفى كمال عرض عليها فيصل الاول
ملك سوريا اذ ذاك المساعدة العسكرية من اجل الدفاع عن
اسوار البلاد العربية لكنها وقفت من هذا العرض موقفا من
عرضنا من اجل المحافظة على حصن بلاد العرب الشمالي :
اسكندرون . وكانت فرنسا تقف هذا الموقف من جميع
قضايانا القومية : من استقلال مصر وثورة عبد الكريم الخطابي
ضد الاستعمار الاسباني . حتى لقد حملها التعسف على التدخل
بالقوة المسلحة الى جانب الاسبان الطغاة ضد بطل العرب .
وكان غوستاف لوبون احد اصحاب الرأي في فرنسا قد عبر
عن مخاوف حكومته عند دخول العراق في جمعية الامم بقوله :
« سوف يكون لاستقلال العراق من الهمية في القرن العشرين
اكثر مما كان لبروسيا في القرن التاسع عشر » فحذر بهذا القول
حكومته وحكومات اوربا من العواقب المترتبة على ذلك .
اما الاسباب التي تدعو فرنسا لاتخاذها هذا الموقف من
قضايانا فهي اولا . خوفها من الوحدة العربية ، ثانيا حرصها
على البقاء في المغرب العربي : تونس والجزائر ومراكش خوف
وحرص ، كلاهما اهميا بصيرتها في السياسة العالمية ،
ان مرامي السياسة الفرنسية في احتلال لبنان وسوريا لم

تكن لنشر الثقافة كما ادعت . وهل من احد حارب ثقافة
فرنسا الصحيحة في سوريا اكثر من محاربة ضباط استخباراتها
ها؟! بل كان قصدها اتخاذ هذا القطر من وطننا كقواعد
تحاول منها منع تطورنا ودرء خطر هذا التطور في جزيرة
العرب .

والاختلاف على مر اكش بيننا وبين اسبانيا لم يزل قائما على
اشده رغم ما قطعه فرنسكو ، رئيس تلك الدولة ، من عهود
للعرب الذين ثبت سلطانه في المملكة على حراهم .
وقد تفوق هذه المشا كل جميعها مشكلة القواعد الحربية
لبريطانيا في بلادنا ومن وراء هذه الدولة امريكا والعالم
السكسوني اجمع .

وها كم ما قاله احد السياسيين الامريكان عن اهمية موقع
بلاد العرب ان المعركة الفاصلة بهذا النزاع ستكون في بلاد
العرب . ومن ينتصر في هذه المعركة يكون قد ضمن لنفسه
النصر طيلة المرحلة التاريخية الراهنة . « وبعد ما تقدم امن
العجب ان استكباب الاجانب على التدخل في شؤوننا وعرقلة
تطورنا ؟

لقد بلغ هذا التدخل في المدن في افساد الناشئة حتى حملنا

على القول الآتي : « امس العرب فريقين : فريق أخرس أصم وهو حزب العروبة ، وفريق يسمع ويتكلم وهو حزب الخلفاء وعند ما تنحل عقدة لسان احد البكم يلقي الخلفاء شصهم فيصطادونه ويحشرونه في زمرة اعوانهم » .

و كثيرا ما كان نفوذ الدول الاجنبية يشتبك في تحوير اوضاعنا الى حد اصبح من المتعسر معه على ذي البصيرة تعيين الدولة المسؤولة عن الاساءة مما حملنا على القول ايضا بان : « مثل البلاد كمثل ولد في محل الشبهة : فمن الصعب على الناس تعيين هوية المسؤول عن الجريمة » .

ويتساءل المرء كيف كان انتهى مصير العرب لو لم توجه العناية الالهية الاوروبيين نحو امريكا واستراليا فيتحول عنهم الخطر نحو الهند الحمر ، وكيف تسنى للاجانب التدخل في شؤوننا الى الحد الذي شلوا به فعاليتنا ؟

حين احتل الاجانب بلادنا وجدوا من يتآمر معهم علينا من الدخلاء على بيئتنا وما ان امتلكوا زمام الامر حتى استبدلوا اعوانهم بالوجهاء ، وعندئذ طغت على البلاد زمرة من السفلة : من السياسيين المحترفين والتجار المحتكرين وحملة الشهادات المزورين وعندئذ هان على الطغاة ان يجعلوا من

الخونة قدوة يطمسون بها على الناس الفارق بين الفضيلة والروذيلة
وعندئذ هان عليهم ان يجعلوا من الذين يكيدون للامة
(قوامه) يقتنصون بواسطتها المغفلين من ابناء الوطن فيدرجونهم
في شباكهم بين المتآمرين .

ان ما سهل على الاجنبي اقتناص الناشئة هو حاجتها الى
المعيشة ، فليس من مخرج للمتعلم غير ابواب (السرايا) مادامت
الزراعة والصناعة عندنا على هذا المستوى من الانحطاط .
الا يلجأ كل صاحب شهادة ، آخر الامر الى وظيفة في جهاز
الدولة ، ومن يأكل من خبز السلطان يضرب بسيفه « كما يقول
المثل العامي . وتعبيراً عن هذا الموقف كنت اجبت على سؤال
القاه علي احد تلاميذي في تجهيز حماه عن سبب القلق في نفوس
الشباب فقلت : « ان ذلك يرجع الى كون قلوبكم مع الجمهور
وعقولكم بباب السرايا » .

ولكن لو لم يحمل اولياء التلاميذ مصير ابناءهم ما استطاع
الاجنبي الهيمنة عليهم بهذه السهولة ، انه لفي هذا الاهمال يكن
كل الخطار على مصير الامة وعلى مستقبل ابناءها معاً . فاذا
كان الاجنبي قد سلب الامة جهود المتعلمين في حل مشاكل
الحياة العامة ، فانه لم يسبب العقم في نفوسهم الا بعد ان اجف

في قلوبهم ينابيع المسرة . و كيف تنمو الشخصية اذا لم يتبادل
صاحبها العاطفة مع الآخرين ؟ كيف تنمو اذا عقد صاحبها النية
على الكيد لاماني الامة ؟

ان المكيدة لم تكن لتخفى حتى على تلاميذ المدرسة ،
وهاك رأي أحدهم في هذا الامر ، وجهت مرة لتلاميذي
بتجهيز حماء السؤال التالي : « ما الداعي الى توزيع تلاميذ
المدرسة على الاندية » وكانت عدد النوادي في تلك المدينة
يتعدى العشرين ، فأجاب احدهم بهذا القول : « لكي نجحش
عقولنا » ولما سألته « ماذا يفيدكم هذا التجحيش » اجاب :
« الحصول على الشهادة ثم على الوظيفة بلا تعب » « فما هي فائدة
رئيس النادي اذا » وكان رؤساء النوادي من اعيان البلد ، قال
« حل مشا كل الناس في السرايا » .

هكذا يستعين الاجنبي بالهيئات الحزبية على اقتصاص
الاحداث من بين المتعلمين . ونحن نذكر هنا على سبيل المثال
الطريقة التي يسلكها اهل الجزيرة لسوريه في التعرف على او كار
الجرذان : يختزن الجرذ في الصيف مؤونة الشتاء من الحنطة
وعند ما يحاول اوشاب الناس مقاسمته ذخيره في الايام الصعبة
يصطادونه ثم يجعلونه في خيشومه قصبه بشكل عرضاني ثم يطلقونه

مقتفين اثره ، فكلمها حاول هذا اليائس دخول احد الاوكار
عاقبة القصة عن الدخول في حين يكون قد دل بذلك على
مستودع الخنطة .

ان ما أوحى اليها هذا الشبه بين الجرذ والجاسوس على قومه
هو استعمال الكلمتين على سبيل الترادف في احدى اللغات ،
الانكليزية .

وبعد ذلك امن العجب ان يقف تطورا على حدود التفاعل
بين الجمهور والعالم دون ان يكون للفرد من شأن في هذا التطور
انا قد ذكرنا بمناسبة مماثلة العقم الذي عثرى العرب . وها نحن
نعيد القول بأن الاله ، وان كان يشرق شمس حتى على الكلاب
لكن ذاته لا تتجلى الا للنفوس الكريمة .

وهل بقي الامر عند هذا الحد . الا يرجع تفشي السفاهة
في البلاد الى محاولة تواري هؤلاء البؤساء عما يعانونه من عذاب
الوجدان . مثل النفس من آثامها كمثل المرأة من قذارة سجنها
كلتاها تتجنب مواجهة البشاعة ، تعرض المرأة عن رؤية محاسنها
في المرأة عند قيامها بما يسيء الى هذه المحسن ، وكذلك
تتوارى النفس عن ذاتها ومصدر فضائلها اذا تشوهت بارتكابها
الآثام .

وبهذه المناسبة، مناسبة اهتمام الدول بمصيرنا نذكر أيا كتنا ولنياه
كجواب على احد تلاميذنا ، وكان التلميذ هجينا من اب عربي
وام تركية ، وكان يتوخى من سؤاله المفاخرة بخوولته على
بني عمومته ، والسؤال هو : « كيف استقل الاتراك وكانوا قد
خاضوا الحرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ضد الحلفاء ولم نستقل نحن
مع اننا دخلناها جنبا الى جنب مع الحلفاء المنتصرين . فأجبت
على سؤاله بقولي : « انك تجد الجواب على السؤال في التاريخ
اذا القيت نظرة شاملة على حوادثه منذ مطلع القرن التاسع
عشر الى الان : ان المانيا لم تقمأ تحاول منذ ذلك الحين جمع
شملها وكلما قامت بهذه المحاولة وقفت دول اوروبا في وجهها في
حين كانت هذه الدول تتد الكبيرة منها الصغيرة لاستكمال
شروط استقلالها متخذة منها حلقات تشد بها الخناق على المانيا .
اما السبب في هذا الموقف فهو ان المانيا لديها من العدد والامكانية
بحيث يصبح اتحادها خطر على توازن قوى العالم » .

واذا كانت دول اوروبا تقف هذا الموقف من المانيا التي
هي وانلكاتراة وامريكا من ذات العرق الجرمانى ومن ذات
المذهب البروتستانتى ، وكلها يخضع للنظام الرأسمالى ، فماذا
يكون موقف هذه الدول منا . لاسيما ان ذكريات اجدادنا في

اوروبا لم تزل ماثلة في اذهان العالم ، ذكريات عبر عنها احد
فلاسفة التاريخ في هذا العصر ، شبنجلر ، بقوله : « لو انتصر
العرب في موقعة بواتيه لكانت اوروبا اليوم مزدانة بالمأذن
ولكان صوت (الله اكبر) يدوي في جميع ارجاء الغرب .
واذا نحن مثلنا العرب ببارد في قمم وقلنا : مادام المارد في
مكمنه يتصرف في مصيره حتى الطفل ، بينما انه اذا طلع وانتصب
غير مصير العالم . اذا قلنا هذا القول لم نكن نعني من القمم
التقاليد البالية والعقلية الرجعية التي تحيق بنا وحسب ، بل كنا
نقصد ايضا موقف الدول من قضيتنا .

اما المشاكل ترجع الى مجرى حوادث تاريخنا فهي اولا :
الاختلاف في الدين والمذهب بين ابناء امتنا ، ثانيا : الاقليات
العرقية المبعثرة هنا وهناك ، ثالثاً واخيراً ، مشكلة خمول الجمهور
وضعف الشخصية .

اننا ندين بمجدنا القومي للاسلام ، ندين به لمحمد نبي الاسلام
وهل يجوز لنا ان نفصل بطل الامة العربية عن رسول الاسلام
الى العالم في شخص محمد .

فلما اطل محمد بن عبد الله بولده على العالم كان ذلك عام
الفيل الذي هو اشد الاعوام بوساً على العرب . ان ذكرى

محنة احتلال الاحباش هذه لجزيرة العرب ظلت هائلة في نفس
بين يعرب قاطبة . واذا كان نبي الاسلام يريد لقومه بانه سيجعلهم
اصحاب كنوز قيصر و كسرى ، كان يشير بهذا الوعد الى
الاسباب البعيدة التي دفعت بالاحباش الاحتلال قلب بلاد العرب .
وهل اخلفت بالوعد الدولة التي شيدها محمد . الم تجمع شمل
العرب وتطهر بلادهم من كل دخيل معتد ؟ او لم تتعد حدود
انصافهم هذه الى لم شتات العالم تحت راية واحدة الا وهي راية
الحق ؟

ان العالم الممتد من سد الصين الى بحر الظلمات قد خضع
في ذلك العهد لشريعة واحدة هي شريعة محمد ، ونهل الناس
اذ ذاك من ثقافة واحدة هي الثقافة المتبلورة معانيها في كلمات
اللغة العربية . واذا ذاك انتقل العرب من عهد بطولة الفرد في
الجاهلية الى عهد بطولة امة شعارها الجهاد ورسالتها خلق عالم
تتحقق فيه امانى الانسان من اخوة وعدالة . واذا اتخذ محمد
رايته العقاب ووسيلة رسالته الحسام فان الامانى لا تتحقق الا
بالقوة ، بقوة يحسم بها المرء بين عهدين : عهد الطغيان
وعهد الحق .

ولكن الاسلام يتضمن مع ذلك بذور التفرقة التي تنجم

عن تفسير الايات بحسب عبقرية الافراد والامم المختلفة .
كان المتعارف عليه بين الناس في الجاهلية هو ان الاسلام
دين التوحيد او ما نعني به نحن المعاصرين الاستسلام لصوت
الحق الداوي في الوجدان الداعي الى المكارم والناهي عن
الموبقات . والاسلام في رأي العرب يبدأ مع آدم الذي هو
ابو البشر . ومبادئه الاسلام تراث تتناقله الاجيال منذ فجر
الانسانية . وانما شأن الانبيا استجلاء ما طمست عليه التقاليد
البالية من حقائق خالدة ، شأنهم كشأن البراكين حين تعيد الى
الارض سميتها التي طمست معالمها بتأثير عوامل التحات . واذا
كانت البراكين تختلف قواهاها باختلاف قشرة الارض حيث
وقع الانفجار فانها واحد من حيث المصدر . وكذلك هي
الحقيقة الانسانية : انها خالدة وان اختلف عباراتها باختلاف
الاقوام والازمان .

اذا فالاختلاف بين العرب لم يكن على كلمة اسلام بل كان
على نبوة محمد . « قدم على النبي اسقف انجران والعاقب فعرض
عليها الاسلام فقال له : انا كنا مسلمين قبلك » من تفسير
الجلالين للقرآن الكريم . « لما نزلت الاية : ومن يبتغ غير الاسلام
ديناً ، فقالت اليهود فتحنن مسلمون »

ولقد كان لتدخل الاجبي في اذكاء روح التفرقة اذ ان الروح
وقعوا باعوانهم من المعارضين لمحمد في المدينة الى انشاء جامع
غير جامعه بقصد الحيلولة دون اتحاد العرب تحت راية بطلهم .
ولقد سبق للروم والفرس ان حالوا دون جميع العرب تحت
راية شاعرهم الملك الضليل امرىء القيس .

لكن العروبة المتصاعدة موجتها تحت راية الاسلام لم تكن
لتأبه للمتخلفين عن المسير . الا ان من انفصل عن موكب الجماعة
تضرر فيه الحياة ويضعف تحسسه بالكرامة بحيث يصبح على
اخوانه بالمصير عالة .

وكان الاختلاف على من هو احق بان يكون خليفة لمحمد
ابلع اثراً في تفرقه كلمة العرب مما كان على رسالته . وكيف
لا . هل يقبل الذهن العربي بالمساوامة ام يدعن الامر الواقع
اذا لم يقره الوجدان . فلما توفي الرسول تمخض موقف العرب
من الخلافة عن ثلاثة اتجاهات : اتجاه تمثلت فيه سلطة الحكم
مستعينا بموجة الاسلام في انتشارها وفي نزعة النفوس الخائرة على
الاستكانة ، واتجاه تبلور فيه الميل الى التأمل متعففاً بعض التعفف
عن امور الدنيا ، اتجاه تجسدت نزعاته في اهل البيت اصحاب
المشيخة في الجاهلية بحيث حرمت الامة العربية من معظم عناصر

الفكر فيها ، واتجاه بعثت فيه روح الجاهلية متحلية بالاسلام
ومتحفزة للاستشهاد في سبيل ما عقدت عليه النفس من ايمان
كالخوارج .

ولئن كان الاصطدام بين الخوارج وبين المدافعين عن
الحكم حرصاً على عزة سلطان الاسلام قد قدم اروع الامثولات
في البطولة في تاريخ العالم فان هذا الاصطدام هو من الاسباب
الاساسية التي استنفدت الدم العربي مجده العرب وناشر راية
لاسلام بين الانام . وما ان نفذ الدم العربي في الفتوحات وفي
الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين ، وهو المأمون «
على انتهاك حرمة بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش
من خوولته صعاليك ايران . وقام هجين آخر ، هو المعتصم ،
بنقل العاصمة من بغداد الى سامراء لكيما يجرد بني خوولته ، او غاد
تر كستان ، من رعاية العرب وعندئذ اخذ العرب يتقلصون عن المدن
آوين الى الارياف . وعندئذ اخذ الدخلاء والهجناء والرعاغ يطغون
على سطح الحياة . وما ان طغى الاغيار على البيئة العربية حتى زاعت
قيم الحياة الاصلية عن محورها بحيث بدأ الميل سوياً .

واذا كان الاسلام قد اذكى الشوق الى المثل الاعلى فان
هذا الاذكاء كان في غالب الاحيان الطبيعة . ومتى اصبح الجسد

هزيبلا صمرت فيه الحياة والت الشخصية الى الانهدام . ولما
انفصلت الميول الطبيعية عن الصبوة الى المثل الاعلى تردى الناس
الى النفاق .

اما مشكاة التشتت في الرأي حول القضايا العامة فترجع
الى موقف زمرة المتعلمين موقف المغفل من الحضارة الاوروبية
ومن ثقافتنا القومية ، موقف من تنقصه الشكيمة في استجلاء
معالم وجهتي الحياة الانسانية . فلما استيقظنا على تباشير الحضارة
كان الاجنبي قد احتل بلادنا وكان قد اخذ يشرف على التعليم في
مدارسنا . واثلا نتجه بحكم طبيعة العصر نحو الجاهلية التي هي
عهد الفطرة فنجد دنس حياتنا ونلتقي مع روح الحضارة الحديثة
بحيث تصبح نهضتنا على ينبوع الثقافة المتقدم على كل دين ونعرة
(العرب قبل موسى وعيسى ومحمد) ؟ اخذ الاجنبي يدفع
بالسفلة الى تشوية معالم عهدنا الذهبي ، منهل ثقافتنا . لم يكن
ليخفى على الاجنبي ان نهضة الامم تقوم على البعث اي العودة
الى العهد الذي نشأة فيه معالم حياة الامة نشأة طبيعية . فذلك
قامت نهضات الامم الحديثة بالعودة الى العهد الذي سبق المسيحية
بالظهور ؛ اي قام باستبدال اللغة الام باللاتينية في غربي اوروبا
واليونانية في شرقها في كل من الاوطان . واقام مناقب الاجدد

في كل من الاقوام مقام الكتاب المقدس (الثورة) .
كان الاجنبي يتوقع ماسؤول اليه نهضتنا من استقلال واتحاد .
وكان يستبق الحوادث فيحاول تضليل الجمهور عن امانيه بضجة
مصطنعة وذلك يدفع الاوباش الى اثاره نعرات اقليمية ليس لها
من محل في الحقيقة كجمعية (مصر الفتاة) في مصر وجمعية
فينيقية الجديدة) في لبنان و (الكتلة الوطنية) في سوريا
الخ . . . حتى انه لم يتورع عن استثمار المغفلين في حلب ضد
دمشق التي هي اليوم عاصمة العروبة . فكأن العروبة قد اندثرت
كما اندثرت وما القديمة . فلكل اقليم قوميته كما كان لكل في فرنسا
واسبانيا وايطاليا قوميتها . ياله من تشبث عقيم ورأي سخيف .
وهل تتكون الامة بقرار من المندوب السامي ؟ اتكوين
الامم مصطنع الى هذا الحد ؟ ومن حسن الحظ ان المرحلة
التاريخية الراهنة لم تبق للنزعة الاقليمية من محل في التفكير
السياسي . حتى لقد اصبحت القومية ، بالمعنى الضيق ، آخذة
بالاضمحلال . افلم تظهر على مسرح العالم تكتلات سياسية على
مقياس اوسع من حدود الوطن ؟ ها كم مثلا تكتل شعوب
الرابطة السلافية : روسيا ، بولونيا ، بلغاريا الخ . . . وحاكم
رابطة الشعوب البريطانية : انكلترا ، كندا . الولايات المتحدة

الخ ... وهاكم رابطة الشعوب اللاتينية الرابطة التي اخذت
نظير في التقارب بين فرنسا وايطاليا بصورة خاصة.
وهل بقي الاجنبي عند حد اثاره النزعات الاقليمية وحمل
الايوباش على الدعوة لها؟ او لم يحاول اذكاء النزعات الطائفية
ايضا؟ لم تزل الانتخابات النيابية عندنا قائمة على المبدأ الديني في
حين انها تقوم على اسس اقتصادية اجتماعية في جميع انحاء العالم
واي دولة معاصرة تتخلى عن شأنها في ادارة مواطنيها الى هيئات
مذهبية خاصة فتحدث ثغرات في دستور بلادنا . اليس اقرار
الحكومة لمبدأ المحاكم الطائفية امتدادا للنفوذ الاجنبي؟ والاعراب
من ذلك ان بعض رجال الحكم يعلنون بوقاحة تشجيع المدارس
الخاصة . فكان وضع لبنان المتردي في الطائفية وما آل اليه
هذا الميل في الخدار نحو الانانية المادية لم يكفيا كعبوة لنا من
اظهار اهداف المحاولة لابقاء البلاد في حالة تفرقة كالفسيفساء.
اليس تشجيع المدارس الخاصة خرقاً لدستور؟ وهل يتم
الانسجام بين الدولة والجمهور اذا كانت برامج التعليم
لا تستوحى منه؟

وقد وصل التضليل في الصحف الى حد من المغالطة حتى
اصبح مثل الرأي العام في تروده بين المتناقضات كمثل حمار

بوردان (Bourdin) بين علمية الشعير وسطل الماء . ومع ذلك فكيف ندرأ عنا هذا الخطر ، لاسيما واننا مقبلون على احداث هامة في العالم .

ان لدينا ثلاث وسائل : العلم والصناعة اللذين تمدنا بهما الحضارة الحديثة وتراث اجدادنا . اما تراثنا فيؤلف ، خلوم من الدخيل عليه وما يعتبره من نشوية ، بين النفوس في صبوتها الى المثل الاعلى . واي عهد من تاريخنا انبلج فيه المثل الاعلى عن طبيعة امتنا كقرارة لها وامنيتها كما انبلج في الجاهلية . ونحن بالعودة الى جاهليتنا ، نلتقي مع اصول الثقافة الحديثة ، الاصول التي تقوم على الاعتقاد بان النفس تنطوي على مقوماتها ، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل الفضيلة . وفضلا عن ذلك اننا لنتحاشى بهذه العودة ما اورثنا التاريخ من حزازات بين المذاهب والاديان .

اما العلم فيوفق بين الازهان توفيقاً ينتج عنه التجانس والانسجام بين الناس رغم الاختلاف بين الاقاليم والتقاليد . افلا تؤلف النظرية الهندسية بين عقول التلاميذ لدى وعيهم حقيقتها ؟ واما الصناعة فهي ايضاً تؤلف بين الجماعة بالمصلحة وتدعم انسجام الازهان في ميلها الى القيام بالاعمال المشتركة . واخيراً فمشكلة ضعف الشخصية ، في بلادنا ، التي هي اهم

المشا كل كلها . فما قيمة الرأي العام اذا كان لم يتجسد بهيئته
سياسية معينة او يبطل قومي يحول الرأي العام من شعور الى
عمل . ربما كان شعور الجمهور العربي بأمانيه القومية اقوى مما
هو عند غيرنا من الامم . ولكن ماختلف به عن سوانا هو
فقدان القيادة لافي السياسة وحسب بل في جميع مظاهر الحياة
العامه ايضا . فأينا اتجهت الانظار اثير الترف من حقارة المنظر
سواء في الادب او في السياسة . مما حملنا على القول بأن القادة
عندنا اشبه بالدجاج الذي يبحث في المزبلة فيلقى منها على رأسه
ظاناً انه يزداد بذلك حسناً .

ونظرة على تطور اوضاعنا خلال السنين الاخيرة تكشف
لنا عن اندحار محترفي السياسة والمتأدين في كتابنا اقام موجة
الجمهور المتصاعدة . فاذا لم تعرض الاقاعة سينمائية واحده
بدمشق من ثماني قاعات من الدرجة الاولى ، الافلام العربية
يرجع ذلك الى تقصير الجمهور بالذوق ام الى تخلف من يدعي
تمثيل هذا الذوق على ركب الحضارة . وهذه المناسبة ، مناسبة
سرعة تفتح الاجيال للحياة المستجدة ، اتذكر اني كنت يوماً
في احدي قاعات السينما بجلب . وكان بالقرب مني احد اصحاب
المجلات وبجانبه ابنه الذي لا يتعدى الرابعة عشرة من العمر

وكان كلاهما يستعينا بالترجمة العربية على فهم الفيلم . ولكن
الولد هو الذي يفسر ما قصر عن فهمه الاب من سير الحوادث .
وكيف كان التطور بهذه السرعة حتى بدأ تباعد الاجيال
الى هذا الحد فذلك ان نهضتنا كانت على عكس النهضة الاوروبية
ففي الامم الحديثة كان القادة يشقون الطريق للجمهور .
وكان الجمهور يهتدي بهديهم في سيره نحو الاهداف المشتركة .
لكن التطور عندما بدأ باتصال الجمهور مع المرحلة التاريخية وعلى
قدر ما كان الاتصال خلواً من التقاليد كانت عجلة التطور اسرع .
اي كانت نفوس الاحداث تشرئب الى تيارات العصر . وكانت
هذه التيارات تدرجهم فيها وتوجههم في وجهتها .

ولكن الحياة في نشأتها تحتاج الى قدوة تستعين بها على بناء
كيانها شخصية ذات معالم معينة . وابن نجد الناشئة العربية
قدوتها ؟ في رجال السياسة ، وحياتهم تنقلب من النقيض الى
النقيض بحسب ما تقتضيه ظروف السياسة الدولية ؛ ام في رجال
الادب ، واقلامهم وقف على خدمة دوائر الاستعلامات
الاجنبية . واذا قلنا ان مثل السياسة الدولية في بلادنا كمثل
المدحلة التي تطمس على الحصة البارزة ، كنا نشير بذلك الى
حدسنا هذا في الامور .

وهل تنمو الشخصية اذا انفصلت عرى المعارف عن الاعمال
في نفس صاحبها؟ اليست المعرفة من العمل كالجذع من الجذور
في الشجرة؟ كلتا الوجهتين تنموان متناسبتين معاً: العمل يستجلي
المعرفة وهو معيار صدقها، والمعرفة تلقي ضوءها على العمل
فتغير له السبيل كما ينتصب الجذع شاهقاً على قدر ما تكون
جذوره ممتدة راسخة، ولكن الحال عندنا بلغ فيه استقلال
الرأي عما يترتب عليه من الاعمال حد القول بان الآراء تتجاوب
في القهوف دون اثر في النفوس، تجاوب الاصداف في
الكهوف.

يصف احد الشعراء الشخصية بهذا القول: من هو الرجل
العظيم؟ هو ذلك عقد النية على فكرة في صغره ثم حققها في كبره
وهل تتوفر شروط الاستقرار في بيئتنا او في مدارسنا كما
تنمو الشخصية بنجوة عما يعوقها من اراجيف طارئة. في سنة
١٩٤٥، عندما عدت الى التعليم، كان الدوام خمسة واربعين
يوماً فقط خلال العام الدراسي. ومع ذلك كان النجاح في
الامتحان بنسبة عظيمة. وهل تنمو الشجرة اذا قلقت
جذورها؟!

ان الجسد هو رمز الشخصية. فهو ذو نمو متواصل في

الاحياء الراقية حيث تتفرع الجرثومة عن الخلايا فتألف الخلايا
في الانسجة وتنسجم الانسجة في الاجهزة . تفرع يبلغ مداه
حتى الخمسين سنة عند الانسان ، تاج الخلية ، بينما هو مبعر في
الاحياء البدائية ، مداه لا يتعدى هنيهات متضائلة بحيث تلتبس
الحياة بالبيئة فتخضع بهذا الالتباس لاراجيفها . او كذلك الشخصية
تحتمل كل الدرجات من خضوع صاحبها للنزوات والعادات الى
تنسيق مظاهر الحياة وترتيبها اما اذا طويلة .

ولكن اذا كانت العناية قد أخذت على عهدتها امر انشاء
الجسد ، فان الشخصية يتم انشاؤها باشتراك صاحبها الفرد مع
المجتمع . وهل يقوم مجتمعنا بهذه الوظيفة ؟ أليس ديدن موظفي
الدولة سلب الثقة من قلب المواطنين بالحق والعدالة ؟ فما حل
المشاكل بالالتباس ، اذا لم يكن نكران مبدأ القانون والكفاءة
الشخصية .

« مثل الحياة كمثل الماء ، فان يركد الماء يغور في جوف
الارض او يستنقع فتعيث فيه الديدان ، وان يجر يصف على
مجره حلة من العشب والزهر ، وكذلك الحياة تغور في صاحبها
الانسان اذا تردد وتملكت منه الحيوة ويصبح عندئذ بين
الجدب والانانية .

ولكنه اذا عقد العزم على العلى واتخذ له هدفاً اسمى تفتحت
نفسه عن مكنوناتها .

« ان الاهداف تثير القوى الكاعنة في الحياة وتحفزها بهمة
متزايدة ، وتزايدها يتبع مرتبة رفعتها وصدق تعبيرها عما
يتمخض به النفس من امنية ... ولكن تأثير الهدف في النفس
يزداد ايضا مع مدى اشتراك الجماعة فيه كأمنية ، وتعبيراً عن
تأثير هذا الاشتراك فيه ، قيل ان الحياة كالنار تشتد ذكوتها
بانتشارها ... واي هدف يبعث بخيال أفسح بما تبعته العروبة
في نفوسنا كعرب . فان نلق نظرة على امتنا عبر الزمن نرى
تاريخها يرتقي الى اصول الانسانية . وان نسرح الطرف في العالم
نرى بلادنا فيه بمثابة القلب من الجسد ... واي هدف نلتقي فيه
اماني العرب غير استقلال العروبة بالمصير عن كل دخيل . انه
لعلى الاستقلال يتوقف انطلاق الخيال وازدهار الحياة كشخصية
ذات معالم معينة .

الاسرة

الاسرة هي رابطة اصلها في الحياة وفرعها في المجتمع ،
رابطة طبيعية مثالية تتراوح بين البراءة والقدسية ، بين براءة
الحب و قدسية العهد . هذا اذا لم تدنسها الانانية .
اما الحب فيتأرجح بين الهوى والشغف ، بين هوى فنان
وشغف ولهان ، بين ميل الحياة الى التنقل وبين صبوتها الى التسامي
والميل الاول تجسد بالفراشة اذ هي تنتقل من زهرة الى زهرة
مرتشفة بهذا التنقل عبير الحياة . وصبوة الثاني يرمز اليها
النسر اذ هو يرتقي الافاق متعاليا فيتذوق بهذا الارتقاء رونق
الاضواء الآخذ رواؤها بالتكليف مع الرفعة . الا ان الحب
عند الامم الحديثة ، اذا كانت نزعته الى المتعة تتمثل بالفراشة ،
فان الحب ذا الامل غير المتناهي عند العرب يسبغ على الطبيعة
رواء حياة متسامية فيبعث في النفس بروعة المشاعر التي ارتقى

في صوابته اليها انه لا اختلاف تترتب عليه نتائج خطيرة في مستقبل
الامم ، ليست حكمة وجود الحب وما يذكىه من دلال
استنفار للقوى الكامنة في الحياة بحيث يتزود الولد ، ثمرة القلب
بما يجعل منه نوعا انسانيا اكمل فأكمل ، او ليست الشكوى
من تناقص العبقرية في هذه الحضارة ترجع الى تشتت الحياة
في النزوات .

واما العهد فمستقره المجتمع بحيث يتلقى حلة نقيه من عادات
الزمن . انه على رسوخ الرابطة الزوجية في الحياة وثبوتها على
الدهر تقاس متانة المجتمع . وفي اية امة بلغ ما بلغه عند
العرب ، امر تمييز قدسية العهد في الزواج من دنس
النزوات .

يقوم كيان الاسرة على الرجل والمرأة . والرجل في هذا
الكيان يرمز الى المثل الاعلى اذ هو يصبح لبنية قدوة . والام
فيه تفيض بالمشاعر فتذكي عواطف البنين ان وداعة المرأة وميل
الرجل الى السيطرة وتبادل العواطف بين الاخوة ، كل ذلك
يجعل الاسرة بيئة تتفتح فيها الحياة وتزدهر ، ففي جو كهذا
يتدرب الناس على القيام بالاعباء العامة ، يتدرب اعضاء الاسرة
على القيام بالواجبات عن طريق المحبة ، محبة الابوين للاولاد

ومحبة الاخوه فيما بينهم ، انما المحبة سبيل المعرفة وحافز للقيام
بالواجب واقامة العدالة . ومن لم ينعم بهذا الجو الرحماني يبقى
قلبه ظمآن الى العاطفة ، واذا كانت كلمة (اسرة) تدل بنشأتها
اللغوية على المصدر المشترك فان كلمة (أخ) تعني باشتقاقها من
(آخ) البنيان الرحماني المشترك ، البنيان الذي يتضح لدى ظهور
النكبة بصورة خاصة .

في الاسرة يشف البنيان المشترك بين الاقارب عن المشاعر
فتتجاوب العواطف ، وتتجاوبها تنمو الحياة وتزدهر . في جو
كهذا تتفتح نفس الام عن مشاعر الحنان والرحمة ويمارس الاب
ها فطر عليه الرجل من ميل الى السيادة ويقيم العدل بطريق
المحبة ، وتزهو قلوب الابناء بالاماني والآمال . وفي جو كهذا
يتحول التلازم بين الاعضاء الى الحرية ، حرية الاشراف من عل
على حاجات الحياة ومشاكلها .

ولما كانت الاسرة تدعم الحاصل الكريمة في نفوس اعضائها
وتحفزهم الى العلى ، وكانت تؤلف بتلازم اعضائها بالاصير ،
هيئة يراقب فيها الاخوان بعضهم لئلا يخرج احدهم على تراث
الامة فقد اصبح الاستقرار فيها يمدا الحياة بصبوتها نحو المثل الاعلى
ويذكي في اعضائها الميل الى الارتقاء نحو انسانية متكاملة ،

ويدعو الجميع الى ان يدروا عن بعضهم خطر الفاقة .
هكذا ترفع الاسرة الى المثل الاعلى بالمحبة وهكذا تجعل
الحياة وسيلة لغرض اسمي .
ولئن كانت الاسرة تنمي العواطف في نفوس الابوين
والاخوة ، وكان يجب تحذير من نزواتهم الجامحة ، فان شيوع عبادة
النساء والاطفال تسبب هدر الروابط الانسانية وحرفها عن
صبوتها الى المثل الاعلى نحو انانية تحمل في ذاتها عوامل
انهارها .

وثمة خطر يعترض الاسرة في تطورها نحو انسانية راقية ،
الا وهو الزواج بين العروق المتباعدة في الاصطفاء . انه وان
كانت قلوب الاقارب تشف لبعضها عما اختلج فيها من عواطف ،
وان كانت هذه القلوب يتعاون بعضها مع بعض على دعم الحياة
في صبوتها نحو الكمال ، الا ان الزواج المتدني يسبب التداخل
(interference) في قاعدة الحاصل فيستنزل الحياة نحو الترددي
والانتكاس .

وعندها تتداخل في بنية المهجين خصائص ابويه المتباينة
تغور من جراء التداخل قاعدة الحاصل الكريمة في الجملة العصبية

وعندئذ تنطبق الميول الدنيئة مستقلة عن ولاية الميول الرفيعة
بلا وادع يردعها . واذا ما تدنى الهجين وضمرت فيه الميول التي
يراقب بها النزوات اختل كيانه وتنافرت مقومات بنيانه .
وعندما تغور في بنية الهجين قاعدة المثل الاعلى يشعر بالتقصير
عن الامنية فيندب حظه على هذه النكسة . مثل الهجناء في
التدني كمثل الاحياء في الترددي ، كلامهم يستحيل الى مسخ
مستكره .

وقد تهتاج حينها الصفات الاصلية في الهجين حتى تبلغ اوجها
بحيث تصبح الميول الدخيلة بثابة منه (réactif) مثيرة
للنفرة من بنيته المنحطة كما كانت حالة هجناء العرب الذين هم
الشعوب السامية . ولكن سرعان ما ينطفئ الوهج فتنزل
الاحفاد منغمسة في مجموعة الرعاع فيؤلفون معهم سديما من
البشر . وقد تتحرر الانانية من روادع الاخلاق في الهجين
بحيث يكتسب المرونة في توجيه نزواته ؛ ولكن هبوطه عن
فلك شخصيته وتصرفاته الشاذة في الهيئة الاجتماعية يجدان من
نجاحه .

يفقد الهجين ثقته بنفسه فيستسلم الارجيف بيئته . انه عديم
الاستقرار تائه مختار . مثله في المجتمع كمثل الطفيليات في الحياة

يتلقى عن الاخرين قواعد الفكر والعمل . ان الزواج بين عرقين
متباينين من البشر مماثل للتطعيم بين نوعين من الاشجار حيث
يجري النسغ في غير مجراه . انه يجعل الشجرة تعجز وتتخ ، هذا
اذالم تتيبس . افلم تعاقب الطبيعة بالعقم التصالب بين الانواع
الحيوانية المتباعدة ؟ اولا يثير في نفس المتأمل البشاعة انتقال
الثقافة بالتلقين من امة الى امة .

وبعد ذلك فليس من العيب ان حرم العرب ، وهم ذوو
الخبرة الاصلية في شؤون الوراثة ، الزواج من الاعاجم . واذا
عبروا عن شعورهم نحو الزواج المتدني ، بكلماتي (هجين) و (مقرف)
فانهم لخصوا ايضاً قاعدة الزواج الذهبية بجملة مأثورة وهي « لا يعلوا
المرأة من هودونها » . ان خروج الفرد على هذه الحكمة العملية
يودي بجزايا الامة ، تلك الجزايا التي كلف اصطفواؤها جهود
اجيال عديدة . ان الاصلالة هي رأسمال كرسته العناية .

اننا نحاول هنا ان نرسم صورة الاسرة العربية كما هي في الحدس العربي
لا كما هي في الواقع الفاسد حيث اعتراها كثير من التشويه خلال
مراحل التاريخ . ونحن اذن نرسم هذه الصورة تستند الى الكلمات التي
تبلورت فيها حدساً المعاني المختلفة ذات العلاقة بهذا الشأن :

اولا التثنية في الضمير نحو (انتما وهما) حصلت من (اتم
وهم) اللتين هما صيغة الجمع في المخاطب والغائب ، بالحاق حرف
الف ، عبارة المشاركة . ان هذا التكوين يوحي بان العائلة التي
هي الزوج والزوجة قد حصل تبلورها داخل الاسرة ومتأخراً
عنها بالظهور وبأن تقوم على مبدأ ثنائية الزوج التي اشار اليها
القرآن بالآية : « خالقنا كم من نفس واحدة وجعلنا منها زوجها »
وبأن الرجل يتفوق على المرأة لأن صيغة التثنية قد حصلت من
جمع المذكر لا من جمع المؤنث . وهنا ايضاً يلتقي الحدس العربي
مع اية اخرى هي « الرجال قوامون على النساء » . ولم يزل
الذوق العربي على هذا المنحى اذ يقول الرجل (نحن ، اهل
البيت) دون ذكر المرأة حشمة لارتفاعها .

وعندما نحلل العبارة الصوتية المستعملة كضمير في المتكلم
والمخاطب والغائب نجد ان المخاطب والمتكلم يتان بصلة الى
صوت الاين الذي هو عبارة الهيجان الطبيعية ، وان الغائب
هو تحرير لصوت (هو) عبارة النداء . مما يحمل على الاعتقاد
بان الاسرة يلزم تكوينها الطبع البشري . اذ ان كل الصوتين
بدئي يشير الى استعمالها لدى ظهور الانسانية على مسرح الوجود ،
اي لدى اقامة الرمز مقام الصوت الطبيعي . وان الاسرة

الأبوية ظهرت مع ظهور اللغة اي مع ظهور الانسانية . ولذا
فان ما قيل عن الاسرة الطوطمية الامومية كمبدأ للأسرة العربية
هو قول باطل لا يستند الى شيء من الحقيقة .

ثانياً : وكلمة (حب) ذات النشأة الصوتية المشتركة مع
(هب) و (أب) تعبر عن معنى الظهور والاعتلاء، معنى تنطوي
عليه عبارة الهيجان التي تحصل لدى القفز في الهواء وربما كانت
كلمة (up) الانكليزية راجعة بنشأتها الى هذا التعبير الطبيعي
اما الاحرف الاول المتحولة في هذه الكلمات اي احرف (ح)
و (أ) و (ه) المتقاربة بالخرج فتعبر عن تلوينات الحدس المنطوية
عليه تلك النشأة .

ومتى تعتلي الصورة في الذهن فتظهر على سواها فيه؟ أليس
لدى اتجاه لذهن اليها بالانتباه لكن الانتباه ينطوي على ميل في النفس بمثابة
الابرة من الحاكي . ان العلاقة بين الميل وغرضه على مثال العلاقة
بين الأنشودة المسجلة على الاسطوانة والابرة : هذه تبعث
بالموجات الصوتية المحفورة في الاسطوانة اخايد وذلك تبعث
بالحركة . وكذلك هي العلاقة بين الاشياء والغرائز وبين التحفة
الفنية والالهام . وانما شخصية المحبوب هي صورة روح من
يجب . صورة مجسدة .

الا ان الغرض يرمز الى نزعتيه رمزاً فاذا ما قصر شخص
المحبوب عن مثله الاعلى (نموذج) لجأ المحب الى الخيال كما
ينشئ صورة مثلى يعرض بها عما كان من تقصير في الواقع .
وليس لسبب اخر ترجع الخيبة في الحب . ان الحب حدس
قدورك به المستقبل جملة ادراكا تبعث به امكانيات الحياة امنية
ورجاء واذا كانت هيئه المحبوب توقظ كوامن الحياة وتساعد
على استجلاء الصور المثلى في الوجدان ، فان الصورة المثلى ايضاً
تقضي من روائها على سبب انبعائها فتجعله اقرب الى الكمال .
ان شأن الحب هو ان يجعل الحياة تستجلي نماذج ذوات معالم اوضح
فاوضح .

ويبدو الحب اما كميل يتجه نحو الواقع واما كصبوة تتجه
نحو المثل الاعلى . فهو ينزع في الحالة الاولى الى صبوة جذورها
في الجسد ، ويصبو في الحالة الثانية الى حيث يستقر المثل الاعلى
فيعرض بالرفعة على صاحبه عن قصور الواقع . ولكن لما كان
سبيل الامكان متشعباً وكان ما يودي منه الى المثل الاعلى ضيقاً
حرجاً اصبح الحب لا يبلغ مداه الا في النفوس المجهزة بفسحة
الخيال وبذوق عريق في الاصاله . ان الحب هو الشعور بروعة
المثل الاعلى المتجلى في نفس الذي يهوى .

ثالثاً : وكلمة عشق الحاصل تكوينها من (عش) بالحاق
 حرف (قد) بها ، الحرف الذي يعبر عن المقاومة . تفيد ان
 الغرض من العشق هو انجاب البنين . اما المقاومة التي هي هنا
 الدلال فهي وسيلة تشير بها المرأة كوامن حياة الرجل وتذكيرها
 بغية انجاب اجيال اكمل فأكمل . فالعشق ينطوي اذا على
 الاصطفاء وعلى نزعة الحياة الى التطور والكمال . اما الخطوبة
 فتشير بأصولها (خط) الى التثبيت والاقدام ، الى الحدس
 المتضمن كل المستقبل الذي يكمله الزواج حسبما تشير هذه الكلمة
 على عودة الرجل والمرأة الى الوحدة المثلثية التي اشار اليها القران
 وهاك بعض الاقوال الماثورة بهذا الشأن « لكل شيء ثمرة وثمره
 القلب الولد » ، « اولادنا اكبادنا تمشي على الارض » ،
 « وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل »
 « ليس في الحب مشورة » ، « تجوع الحرة ولانأكل يثديها » ،
 « الاصيل يجود » ، « اياكم وخضراء الدمن » ، « ان النساء
 شقائق الاقوام (الرجال) » ، « عقل المرأة في جمالها وجمال
 الرجل في عقله » ، « الحر حر وان مسه الضر » ، « ان الارحام
 اذا تماسست تعاطفت » ، « النخ ...

المرأة

لئن افترق عن الحياة جنساها ، الحيوان والنبات ، فقد
حققت بهذا الافتراق نزعتها الى التجول والاستقرار . واذا
بلغ التجوال غايته بصولة الرجل فان الميل الى الاستقرار ادرك
زهوة بالمرأة .

ولما شتق الذهن العربي كالمي (سيد) و (أسد) من ذات
المصدر ، مصدر سد حماه في وجه العدى ، عبر عن صبوة الحياة
الى التجوال . فالأسد . أسد اذ يحمي غابته والرجل سيد اذ
هو يصون منزله . في حين ان المرأة تبقى مع بنيتها في حرجها المقدس
ولما خص الذهن العربي الانوثة بعلاقة الفتح ، وهي العلامة
الحاصلة من ركون اللسان عند خروج الصوت ، عبر عن وداعة
المرأة وميلها الى الاستقرار وهل الحروف (ت ، ي ، أ) كما هي في
(فاطمة وسلمى وأسماء) غير تحولات لحركة الفتح تلك .

ولكن اذا كانت المرأة اقبل الى الاستقرار استقرارتهم به وظيفتها ،
فانها تبعث في نفس الرجل النشوة وتدكي فيها كوامن الحياة .
حتى اذا ما طلع طيفها ، على قلبه انجبهته الافكار الاخلاقية الفنية
التي يشيد عليها صرح المجتمع . مثل المرأة كمثل الشمس التي يوقظ
شفقها الاحياء من رقادها .

امن العيب بعد ذلك ان قيل ان المرأة تخلق الرجل مرتين :
مرة بالولادة ومرة بالحب .

الم ينحدر العربي عن افق رفعة حين اعرض عن رعاية المرأة؟
اولم يلزم درجات انحداره انزواء المرأة عن مسرح الحياة العامة؟
ان تطور اسمائه من امرىء الى رجل ثم الى زلمه يدل على تحول
صغاته من المروءة الى الرجولة ثم الى هيكل يخيف الطيور .
ولقد كشف عهد الاحتلال ، العهد الذي عانت فيه البلاد الذل
والهوان عن مدى تودي الرجل وتخلفه عن واجباته في صيانة
مقدساته . بينما كانت المرأة وفيه لوظيفتها الاصلية فأقر لها المجتمع
اسمها المشتق من المروءة تقدير لذلك .

وفي هذه المرحلة التاريخية تستكمل المرأة شروط وظيفتها
اذا عادت الى شأنها في الجاهلية : ان تشرف على الشؤون العامة
وترعى بعنايتها الحياة الاجتماعية السياسية . اشرف وعنايته تثبت
بها الرجل على واجباته وتبعث في نفسه النخوة ، اشرف وعناية
تردع بها ممثلي السياسة عن الخسة والندالة . ومثي . تم ذلك عادا
الناس الى ما كانوا عليه من مروءة في الجاهلية .

وتستكمل المرأة شروط وظيفتها اذا شملت الاندية برعايتها
وتوجهت اليها بعنايتها فحولات الرجل مما هو عليه ، من غلظة الى

رقة ومن نحول الى نشوة. ان المرأة تشجذ الهمة بعنائيتها وتذكي
المشاعر النبيلة وتحيي الخيال . ومتى تم لها ذلك جعلت من
الرجل بطلا وفنانا .

اما واجبات المرأة العملية ، الواجبات التي بها تكمل وظيفتها
وتحقق شخصيتها ، فهي ان تكون ربة منزلا تلقي عليه طابعها
بترتيب شؤونه وتنظيمها كما يجعلن منه لوحة فنية يلهو بها الرجل
عن اعباء الحياة ويخضع عنه عناها .

تقوم المرأة بواجباتها اذا حولت المنزل الى موقد يومي
تلهب فيه الاولاد بتراث الاجداد وتبعث في نفوسهم ذكرى
الابطال والمناقب الجليلة بعنا تنمي به الخيال والمشاعر الكريمة .
تقوم المرأة بواجباتها اذا دربت بنيتها على مفاهيم العلم الاولية
فاستعانت بادوات المنزل على الكشف عما انطوت عليه هذه
الادوات من معارف طبيعية . وهي بذلك تقوم تفكيرهم
وتخلق الانسجام بينهم وبين المرحلة التاريخية . هذا فضلا عن
انها تضي على مفاهيم العلم من مشاعر الامومة فتقي بنيتها من
التجريد وجفافه فتبقي للطبيعة بجهتها الاولية .

ان سعادة المرأة هي ان تبقى على طبيعتها وان تتعاون مع
الرجل على تحقيق ما انطوت عليه فطرتها من فن وفضيلة :

« جعلناكم من نفس واحدة وخلقنا منها زوجها » . هذا بصرف
النظر عن فارق الجنس بين الرجل والمرأة .

الظاهرة الأكثر شيوعاً والآخذة في انطلاقها بسرعة متزايدة
هي سفور المرأة . وعندما نلقي نظرة على الحجاب وما يتعلق
به من مستلزمات فنتبع تطوره خلال الربع الأخير من هذا
العصر ندرك ما ينتظر هذه الظاهرة من مصير محتم .

كانت المرأة تقيم في الحرم داخل منزل مغلق ليس نوافذ جدرانها
تطل منها على الشارع ، وكان الحرم مفصلاً عن (المنزل :
السلامك) وهو محل استقبال الرجال بمسافات شاسعة . وندر
ان كانت المرأة تتعدى اذذاك حدود عتبة دارها . وعندما كانت
تخرج كانت ترتدي ملاءة تطمس على معالم قوامها وكان القناع
خاصة يخفي بتضاعيفه قسبات حياها . ما اليوم فقد اصبح البيت
محل استقبال الضيوف من الرجال والنساء على السواء . وقد
اصبح لهذا البيت نوافذ تبدو منها المحاسن للشارع . والنساء
اللواتي لم يسفرن بعد ، وهن اقلية ، يخرجن من البيت مرتديات
المألوف من اللباس فرق بين البيوت والمنتزه . وقد اصبح
الحجاب من الرقة والقصر بحيث يزددن به فتنة .

هذا ، هو الواقع ولكن هل هذا الواقع نتيجة تطور عام
ام و ظاهر شاذة انفردت بتطورها عن تلازم اطوار الحياة العامة
ان في هذا العصر يخضع الناس لعقلية مشتركة تقضي بأن يتساوى
فيها بالحقوق والواجبات الرجل والمرأة ، ان تشترك المرأة مع
الرجل في تشييد الدولة ووضع قوانينها وانتخاب القوة المنفذة
لهذه القوانين ، وان تساهم مع الرجل في العمل خارج منزلها
بحيث تستقل عن ذويها بمواردها .

وكيف ترجع المرأة بعد ذلك فتخضع لارادة الرجل الخضوع
الذي تقاوم به مجموعة ظروف الحياة المعاصرة ؟ لكن اذا كان
السفور ينسجم مع عقلية العصر فهل يقره العقل ويستسيغه الوجدان
انه لمن مقومات العقلية الحديثة ان يكون العلم الزاميا فيشمل
البنين والبنات على السواء . واذا مارست البنات بحكم هذه العقلية
الدراسة من الصباح الى المساء ومن سن الطفولة حتى نهايتها التحصيل
العالي ، وكانت هذه الدراسة تقوم على مبدأ ان العقل حكم في
اقرار الحقيقة ، فكيف تحمل هذه البنات على ان تستثنى ظاهرة
الحجاب من الخضوع لارادتها . ومن ثم ماهي القيمة الاخلاقية
للحشمة والعفة اذا كانت مفروضتين على الوجدان فرضا . الا
يجرح هذا الفرض كبرياء المرأة ؟ اولا يدل على قساة الثقة

بوفائها كما يدل ايضاً على ضعف ثقة الرجل بنفسه بأن يكون
كفوواً لها .

سألني احدي تلميذاتي يوماً عن مغزى القول الشائع بين
الناس بأن المرأة اسبق بالنزوح من الرجل : فأجبت على ذلك
بأن العناية عهدت الى المرأة بامر ادامة الحياة فجهزتها بالرحمة
كما تقوم بهذه المهمة . وعهدت الى الرجل بامر تشييد المجتمع
فجهزته بما يفي بهذا الغرض، ولما كانت الحياة تتقدم على المجتمع
كان نزوح المرأة اسبق من نزوح الرجل .

وسئلت مرة اخرى عن مغزى القول المزعوم بان عقل المرأة
نصف عقل الرجل فقلت : ان الرجل والمرأة يختلفان بالتكوين
فالمرأة اكثر استعدادا لادراك الامور بالجملة ، ذهنها اشبه بغزال
يقفز ويلتفت بعد القفزة ؛ في حين ان الرجل اكثر استعدادا
للتبسط ، مثله كمثل السلحفاة التي تمس طيات الارض مسا ،
لكن العبقرى وسط بين المرأة والرجل ا : ذهنه خصب بالحدس
كالمرأة ، وعزيمته ماضية كالرجل ، فينشئ الخيال فسيحاً فيستجلي
به مكنونات نفسه محولاً اياها من حدس مبهم الى تحفة فنية ذات
روعة . وبينما يبدع العبقرى الاراء التي يقوم عليها صرح المجتمع

وتسبب المرأة البنين فتقوم بادامة الحياة ، يبقى العامي متطفلاً
على الاخرين يعيش على هامش الحياة ، شأنه في المجتمع كشأن
الدبور الذي يقتات على مايجني النحل من عسل .

ولما سئلت عن السبب الذي يجعل العبقري متخلفاً عن الزواج
قلت ان المرأة تؤثر بنيتها على بعلمها بينما يؤثر العبقري بنات نفسه ،
الآيات ، على شريكته في الحياة . الا ان العبقري يعرض عن
المرأة بخيالها في تحقيق الالهام غير ان المرأة لانستعني عن الزوج
في انجاب الاولاد .

و كيف هي ؟ قلت . وهل يتمثل الذهن اية الشمس صورة
ذات معالم معينة ، كذلك هي : يغيب الزهر الضوء كما يعيد
اليه بعد الغروب سبب النشوة ، وكذلك تتلألأ الذكريات في
حياة من احب تلالؤ النجوم في سماء غابت عنها ذات البهاء .

الرسالة الرابعة

الامة والاسرة

الخطأ والصواب

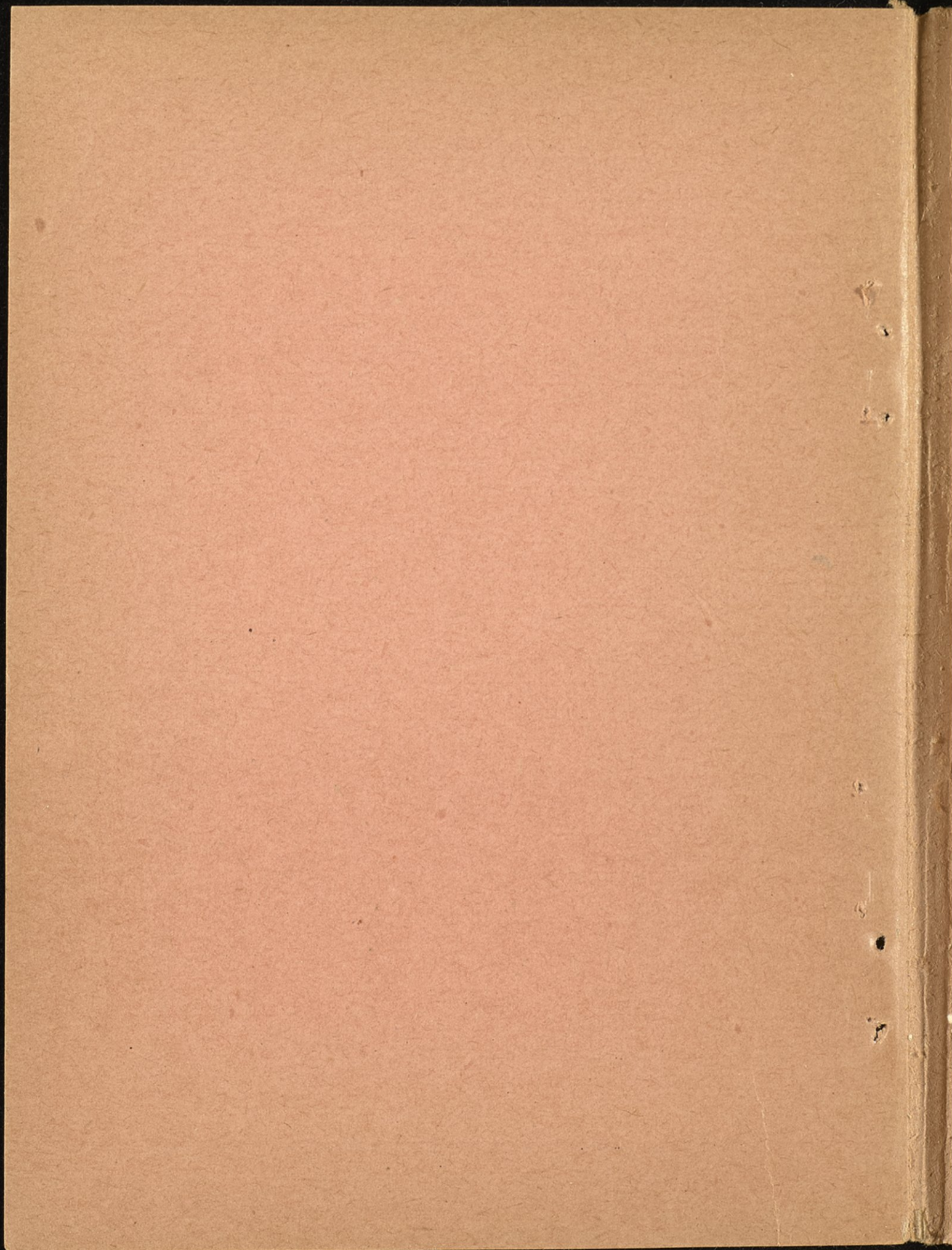
الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
كوبزيج	كوبرنيك	٩	٢
بتجارب	بتجاوب	١٤	١٣
نسفهم	نسفهم	١	١٦
كتلازم الاعضاء	الاعضاء	١٣	١٦
انسجام	بانسجام	١٥	١٦
قاعدته	قاعدته	١٣	١٨
الثافي	الثقافي	٤	٢٠
كثرات	كثرات	١٧	٢٠
أوصى	أوحى	١	٣٠

<u>الصفحة</u>	<u>السطر</u>	<u>الخطأ</u>	<u>الصواب</u>
٣١	٦	تناوله	تناوله
٣٩	١١	في	هي
٤١	١	اهه	الهه
٤١	١٣	الى	أول
٤٢	٤	منحوت	منحوت
٦٢	٨	تسمو	تصبو
٤٢	١١	بيدو	بيدو
٤٤	٨	فتدو	فتبدو
٤٦	١	الاختلاف	الاختلاف
٤٨	٩	ردأ	درأ
٥٠	١٣	يتحدى	فريق يتحدى
٥٣	١	رباء	عرباء
٦٣	١٠	صفارها	صغارها
٦٥	١	العافية	العامية
١٤	١٤	الى الشيطان	والشيطان

الصفحة السطر الخطأ الصواب

٦٨	١٢	غلط	غلظ
٧١	٧	غين هم	غير هم
	٩	الاسواء	الاسوار
٧٤	٧	ويغاند	ويغاند
٧٦	١٣	الفاصات	الفاصة
٨٥	١	الروح	الروم
	٢	وقعوا	دفعوا
٨٧	١٥	نشأدة	نشأة
٩٠	٦	نشوية	تشويه
	١٤	توفيقاً	توفيقاً
٩١	١١	أقام	أمام
	١٥	على	في
٩٣	٥	فتغير	فتعين
	١١	ذلك	ذاك الذي
	١٦	قلقت	قلقلت

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
تنطلق	تنطبق	١	١٠٠
ق	قد	٢	١٠٥
قومي	يومي	٨	١٠٨
الواجبات	الواجب	٤	١١٠
تشيد	نشيد	٦	١١١
تستغنى	تستعن	٧	١١٢



دار اليقظة العربية للنأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم الاستاذ

زكي الأرسوزي

في سلسلة

بعث الأمة العربية

ورسلها الى العالم العربي

-
- | | |
|----------------|------------------------------|
| الرسالة الاولى | الطربية والثقافة |
| « الثانية » | اللغة والفن |
| « الثالثة » | الفلسفة والاخلاق |
| « الرابعة » | الدولة والامة والاسرة |
| « الخامسة » | التربية وتنظيم الحياة العامة |
| « السادسة » | العرب والانسانية |

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0315333523

893.713

Ar99

v.4

APR 22 1964

893.713 - Ar99

v.4